رءوف عبـــاس
المؤرخ والإنسان

د.أحمد حلمي السيد — شـــــــوقى جلال
د.أحمد زكريا الشّلِق — د. عـــادل غـــنـــيم
د.إسماعيل زين الدين — د. عـاصم الـدسـوقى
د. إيمـــان يـــحـــيى — د. عبدالمنعم الجميعى
د.بـــيـــتـــر جـــران — د. مـجـدى جـرجس
د.جـــمـــال حـــجـــر — د. محمد مؤنس عوض
د.حسام محمد المعطى — د. نـاصـر إبـراهـيم

إعداد:
الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

لوجو
الهيئة المربع

سلسلة
الإصدارات الخاصة

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
د. أحمد مجاهد
أمين عام النشر
سعد عبد الرحمن
الإشراف العام
جمال العسكرى
الإشراف الفنى
د. خالد سرور

• رءوف عباس
المؤرخ والإنسان
- إعداد / الجمعية المصرية للدراسات التاريخة
• الطبعة الأولى:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2010م
168ص. 5ر13 × 5ر19 سم
• مراجعة لغوية:
محمد أحمد عبد المطلب
• تصميم الغلاف: أحمد الجنايني
• رقم الإيداع: ٣٤٥٦/ ٢٠١٠
• الترقيم الدولى: 6-864- 479-977-978
• المراسلات :
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى : 16 أ شارع أمين سامي - قصر العيني
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت : 27947891 (داخلى : 180)
• الطباعة والتنفيذ :
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت : 23904096

75

تعنى بنشر الأعمال الفكرية والثقافية والأعمال الخاصة لأبرز الكتاب فى مصر والعالم

• هيئة التحرير •
رئيس مجلس الإدارة
ورئيس التحرير
د. أحمد مجاهد
مدير التحرير
عماد مطاوع

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف في المقام الأول.

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابى من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

رءوف عباس

المؤرخ والإنسان

المحتوى

- تقديم ..... د. عادل غنيم... 7
- رءوف عباس : سيرة علمية .. د.أحمد زكريا الشلّق... 11
- ابـــن جيـــل الستينيـــات
الذى وعى التاريخ الاجتماعى ... د. عاصم الدسوقى... 21
- دنيا المؤرخين فى الستينيات إشارة إلى الدراسات
المبكرة لرءوف عباس..... د. بيتـــرجـــران... 33
- المفكر البَنَّاء وقيمته ..... د. أحمد حلمى السيد... 39
- تواصل الأجيال..
تجربة شخصية ..... د. مجدى جرجس... 47
- فارس بورسعيد يترجل
من على صهوة جواده للأبد .... د. محمد مؤنس... 55
- رءوف عباس
والجمعية التاريخية. د. عبد المنعم إبراهيم الجميعى.. 63
- منهج رءوف عباس
فى كتابة التاريخ المعاصر ..... د. جمـال حجـر... 71

– رءوف عباس ودروه فى تطورمدرسة التاريخ
العثمانى فى مصر... د. حسام محمد المعطى... 79
– نقد الاستشراق
فى فكر رءوف عباس ..... د. ناصر إبراهيم... 89
– رءوف عباس والتجربـــة
اليابانيـــة د. إسماعيل محمد زين الدين... 101
– رؤوف عبـاس مترجما ..... شـــوقى جـــلال... 119
– من شوامخ المترجمين .... د. أحمد زكريا الشلق... 129
– الترجمة والمشروع الفكرى
عند رءوف عباس ..... د. ناصر إبراهيم... 137
– استقلال الجامعة ..... د.إيمان يحيى... 153
– السيرة العلمية للدكتور رءوف عباس حامد..... 159

تقديم

د. عادل غنيم(*)

فى السادس والعشرين من يونية عام ٢٠٠٨ فقدت مصر وفقدت الدراسات التاريخية علمًا من أعلام الفكر والثقافة والتاريخ هو المرحوم الأستاذ الدكتور **رءوف عباس حامد** أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب بجامعة القاهرة ورئيس مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.

وقد درجت الجمعية على تكريم الأساتذة الذين قدموا خدمات جليلة لها وشاركوا فى النهوض بها. ولا شك أن رءوف عباس هو أولى الناس بالتكريم، فقد تحققت على يديه إنجازات كثيرة، حتى أنه يمكن القول فى اطمئنان أن عصر رئاسة رءوف عباس للجمعية هو العصر الذهبى لها.

(*) رئيس مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

لقد تولى رءوف عباس رئاسة الجمعية منذ عام ١٩٩٩ فنهض بها نهضة غير مسبوقة، فبفضل جهوده وريادته للجمعية، توفر لها هذا المبنى المعمارى الفخم الذى تشغله الأن، وبعد أن كانت الجمعية تفتح أبوابها للباحثين فى الفترة المسائية فقد أصبحت تفتح أبوابها لهم طوال اليوم، وتزايدت العضوية فى الجمعية بشكل ملحوظ، وفى عهد رءوف عباس تعدد النشاط الثقافى بالجمعية، فبعد أن كان الأمر معتمداً على مواسم ثقافية غير منتظمة الجلسات، أصبح هناك إضافة على الموسم الثقافى المنتظم ندوة للتاريخ العثمانى وثلاثة سمنارات تغطى العصور التاريخية المختلفة.

وإضافة إلى ذلك فقد تم فى عهد رءوف عباس ربط مكتبة الجمعية بشبكتى الإنترنت والكمبيوتر، كما تم ميكنة الكتب العربية، ويجرى فى الوقت الراهن ميكنة الكتب الأجنبية.

وتقديراً من مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية لذلك الدور البارز الذى قام به المرحوم الأستاذ الدكتور رءوف عباس قرر المجلس إطلاق اسم رءوف عباس على قاعة السمنارات بالدور الأرضى، كما تقرر أن تكون هناك محاضرة افتتاحية فى بداية كل ندوة سنوية تكريمًا للفقيد الراحل، وتم الإتفاق مع الهيئة العامة لقصور الثقافة، لعمل تمثال تذكارى للفقيد، ضمن مشروع ذاكرة الوطن، ولقد أدرك مجلس الإدارة منذ البداية أن خير تكريم لرءوف عباس، هو المحافظة على تحقيق الاستقرار للجمعية ومتابعة الخطى من أجل تطوير نشاطها، وتحديث أجهزتها. من هنا فقد تم تزويد المكتبة ببرنامج علمى، ويجرى تزويد الجمعية ببرنامج آخر للحسابات

والإدارة، كما تم الاتفاق مع خبير دولى فى شئون المكتبات لتقييم دور المكتبة وأنشطتها.

لقد ترك رءوف عباس فراغًا كبيراً يصعب ملؤه، إلا إذا تضافرت الجهود من أجل الحفاظ على هذا التراث، ولم يكن هذا الفراغ ملموساً فى الجمعية فقط، لكنه شمل جانبًا من الحياة الثقافية فى مصرنا الحبيبة يدلنا على ذلك كم ونوعية المقالات التى كتبت بعد وفاته والتى حررها مثقفون متعددو الثقافات والاتجاهات، وبلغ من هول الفاجعة، أن وطنيًا بارزًا هو الدكتور محمد أبو الغار نعى إلى أهل مصر رءوف عباس باعتباره أحد البنائين الكبار، الذين ناضلوا من أجل الوطن، وجعلوا التاريخ ملكاًاللمواطنين البسطاء، وليس حكراً على الدائرة الأكاديمية.

وفى يوم السبت الثامن عشر من أكتوبر ٢٠٠٨ نظمت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية يومًا علميًا لتكرم المؤرخ الكبير، تحدث فيه سبعة عشر زميلا من أصدقاء الفقيد وتلامذته وزملاؤه. وبهذه المناسبة أود أن أشكر الأستاذ الدكتور عاصم الدسوقى على إشرافه على إعداد لقاء الجمعية التاريخية العلمى، وكذلك الدكتورة نجوى كيرة على إعدادها فيلمًا عن الفقيد الكريم، وكما أشكر الدكتور ناصر إبراهيم، لإشرافه على إعداد معرض للإنتاج العلمى المتوفر لرءوف عباس، وجمعه لمقالاته العلمية فى مجال المنهج والمصادر تمهيداً لإعادة نشرها. وأخيًا وليس آخراً أدعو لرءوف عباس بالرحمة والمغفرة، وأن يجزيه الله خيراً جزاء ما قدم لمجتمعه ووطنه والله المستعان.

رءوف عباس : سيرة علمية

د.أحمد زكريا الشلّق(*)

أود فى البداية أن أقدم سيرة شخصية موجزة للمؤرخ الكبير الأستاذ الدكتور رءوف عباس حامد (١٩٣٩ – ٢٠٠٨) وأقول موجزة لأنه أغنانا عن التفصيل عندما قدم سيرة ذاتية فذة تحت عنوان «مشيناها خطى» نشرت منذ سنوات قليلة، انظوت على قدر كبير من الصراحة لم نعهدها فى كتاب السير الذاتية عندنا.. المهم أن هذا الموجز قد يلقى الضوء على تكوين الأستاذ المؤرخ وعلى اختياراته ومجمل نشاطه العلمى، بل ودوره ومكانته فى المدرسة التاريخية لمصر المعاصرة.

ولد رءوف عباس لأب من أبناء الطبقة العاملة، طبقة عموم المصريين، ممن يعملون فى هيئة السكك الحديدية، فى بورسعيد فى

(*) أستاذ التاريخ الحديث كلية الآداب – جامعة عين شمس .

٢٤ من أغسطس ١٩٣٩، ثم انتقل مع أسرته إلى حيثما تعددت أماكن عمل الوالد، فأقام فى قرى ومدن الدلتا قبل أن يستقر بالقاهرة، وهو ما أكسب الطفل والصبى خبرات ومعلومات عن مجتمعات هذه المدن ذات الطبيعة الريفية، وفى القاهرة استقرت الأسرة فى شبرا، معقل الحركة العمالية، مما زود الصبى بمعلومات مباشرة عن حياة طبقة العمال والحرفيين التى قيض له أن يكون مؤرخها الرائد. وكعادة أبناء الطبقة العاملة فى المدن والقرى، تلقى تعليمه الأولى بالكتاب حيث تعلم القراءة والكتابة ومبادئ تعليمه الأساسى فى المدارس الإبتدائية ثم الثانوية بالقاهرة، بعدما خيب رجاء والده فى أن يكون عالمًا أزهريًا، لعدم تقبل الطفل لأسلوب الدراسة بالكتاب، ومن هنا ابتعدت رأسه عن العمامة لتستقر داخل الطربوش «أفنديًا».

وفى المرحلة القاهرية المبكرة من حياته تكون وعى الصبى، الذى عاصر سنوات القلق التى سبقت قيام ثورة يوليو من فشل فى حل القضية الوطنية وبروز جماعات الرفض السياسى كالإخوان ومصر الفتاة وجماعات اليسار، وتفجر الكفاح المسلح ضد الانجليز فى القناة ثم حريق القاهرة، وشارك كغيره فى المظاهرات التى اجتاحت القاهرة، حتى قامت ثورة يوليو ١٩٥٢، وقد تركت هذه التطورات أثرها فى وجدان الشاب الصغير الذى التحق فى عام الثورة الأول بمدرسة شبرا الثانوية، ومنها تنقل إلى مدارس أخرى مع الأسرة حتى حصل على الثانوية العامة عام ١٩٥٧، من مدرسة «الشهداء الثانوية» بالمنوفية.

وهكذا، حسب روايته، تجمعت للفتى خبرات متنوعة فتحت أمامه أبواب الوعى السياسى والاجتماعى، الوجود البريطانى فى منطقة القناة التى شهدت مولده وطفولته المبكرة، مما كان يشعره بالامتهان كلما زار أخواله ببورسعيد فى عطلات الصيف، والحركة السياسية العارمة الموجهة ضد الفساد السياسى والاجتماعى، والواقع الاجتماعى التعس للفلاحين والعمال الحرفيين، والذى عبر عن ذروة الأزمة الاجتماعية،إلى جانب التمايز الاجتماعى البغيض، الذى اضطر والده أن يطلب بطاقة توصية من أحد البكوات ليلتحق ابنه بالمدرسة الابتدائية، حيث رأى اختلاف معاملة المعلمين للطلاب حسب وضع آبائهم الاجتماعى.. كل هذا أوجد لدى الشاب، وهو على أعتاب الجامعة تصميمًا قاطعًا على دراسة تاريخ المجتمع المصرى.

التحق رءوف عباس بكلية الآداب جامعة عين شمس باعتبارها الأنسب قربًا لرحلته اليومية من المنوفية، ثم دخل فى يقينه أن تكوين المتخرج من هذه الكلية يكون أشد عودًا من تكوين زميله المتخرج من آداب القاهرة، حيث أن الكلية الأحدث وضعت نفسها فى موضع المنافسة مع الكلية العريقة.

وفى آداب عين شمس تتلمذ على يد الدكتور أحمد عبدالرحيم مصطفى الذى تأثر به تأثرًا شديدًا، وشهد أنه فتح أمامه أفاقًا جديدة للمعرفة، ولأنه كان يحث طلابه على إعمال الفكر وإخضاع كل شىء للنقد وتكوين الرأى، كما تأثر تأثرًا عميقًا بالأستاذ الدكتور أحمد عزت عبدالكريم، الذى اعتبره المؤسس الثانى لمدرسة التاريخ

الحديث فى مصر، بعد شفيق غربال، حيث تعلم منه ومن أحمد عبدالرحيم مصطفى أسلوب البحوث وتدرب على يديهما على الأصول المنهجية للكتابة التاريخية، وقدر له أن يعد رسالتيه للماجستير والدكتوراة تحت إشراف أستاذه أحمد عزت عبدالكريم.

تخرج رءوف فى مايو ١٩٦١، ثم قضى عامًا دراسيًا بكلية التربية ليعد معلمًا بالمدارس، غير أنه لم يلبث أن عين ضمن أول دفعة تعين عن طريق «القوى العاملة» بإحدى الشركات الصناعية المؤممة فى كفر الزيات، وتسلم عمله فى فبراير ١٩٦٢ حيث كانت الشركة تموج بحركة نقابية نشطت لإزاحة النقابة القديمة التى كونها الرأسماليون، مما حفزه للقراءة والبحث فى تاريخ النقابات والحركات العمالية. وانتهى به الأمر إلى أن سجل دراسة للماجستير عن «الحركة العمالية المصرية ١٨٩٩– ١٩٥٢» وقاده ذلك إلى دراسة الفكر الاشتراكى والتعمق فيه فى مناخ توجه مصر الناصرية الاشتراكى منذ بداية الستينيات وقد تأثر باتجاه الدكتور محمد أنيس ودراساته التى طبق فيها التفسير المادى للتاريخ، وازداد ارتباطًا بالأستاذ عقب تعيينه معيداً بقسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٦٧، وتعلم من أنيس وتأثر بمنهجه، وقيض له أن يخلفه فى أستاذية التاريخ الحديث والمعاصر بآداب القاهرة فى خلال الفترة (١٨٢ – ١٩٨٨)، ثم انتدبته الجامعة الأمريكية أستاذاً فى خلال الفترة (١٩٩١ – ١٩٩٦) نظراً لمكانته المرموقة وسمعته العلمية الرفيعة، ثم شغل منصب وكيل كلية الآداب للدراسات العليا والبحوث

(١٩٩٦ – ١٩٩٩) بجامعة القاهرة، وفى هذا العام الأخير ودع المناصب الإدارية التى لم يكن شديد الانجذاب لها، بعد أن بلغ السن القانونية ليتفرغ لأبحاثه ودراساته وطلابه. ولما كان عضواً نشطًا بمجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية؛ قد انتخب رئيسًا لمجلس إدارتها، وهو المنصب الذى ظل يشغله (١٩٩٩– ٢٠٠٨) حتى وافاه الأجل بعد أن لعب دوراً مهمًا فى حصول الجمعية على مبناها (الذى تبرع به سمو حاكم الشارقة الشيخ سلطان القاسمى) ورعاه بعناية ودأب، ليصبح بتحديثه من أفضل الجمعيات العملية المحترمة عربيًا وعالميًا.

لم يكن رءوف عباس مجرد أستاذ أكاديمى مصرى معروف، وإنما كان على تواصل دائم مع المدارس العلمية فى أنحاء العالم، فكان على تواصل دائم مع الجامعات اليابانية والأوروبية والأمريكية، وعضواً بارزاً فى مؤتمراتها ومنتدياتها وأستاذاً زائراً بالعديد من كلياتها، يشهد بذلك بحوثه التى ضمتها الدوريات العلمية الأجنبية والكتب التى ضمت أعمال تلك المؤتمرات، كما يشهد به ترجماته الرصينة والقيمة.. وكان أول تكريم له على المستوى الدولى عندما اختارته جمعية دراسات الشرق الأوسط بأمريكا الشمالية ضيف شرف لمؤتمرها السنوى عام ١٩٩٠، فكان بذلك أوف عالم عربى تكرمه الجمعية، ورابع المكرمين على المستوى الدولى – بعد برنارد لويس وجاك بيرك وألبرت حوارنى – وقد كرمته الدولة فى مصر بمنحه جائزتها التقديرية فى العلوم الاجتماعية عام ١٩٩٩ لعطائه

العلمى الثَّرى، وتتويجًا لحياة علمية ووطنية حافلة، أثرت المكتبة التاريخية المصرية بنيف وخمسين كتابًا وبحثًا بين مؤلف ومترجم، سواء باللغة العربية أو الإنجليزية.

***

وقد لايتسع المجال هنا للإلمام بمجمل أعمال رءوف عباس، لذلك سيقتصر هذا المقال على الإشارة إلى مجال مهم من مجالات دراساتاه وإسهاماته العلمية، وهو مجال التاريخ الاجتماعى لمصر الحديثة وهو المجال الأثير لديه، والذى بدأ به جهوده البحثية ولم يتخل عنه طوال حياته الأكاديمية، وكان له فيه باع طويل وإسهامات رائدة وضعته فى مجال الريادة العلمية فيه.

وفى هذا الصدد لابد من الإشارة إلى أن المدرسة التاريخية المصرية، الأكاديمية العلمية، كان جل اهتمامها منصبًا على التاريخ السياسى، تشهد بذلك كتابات محمد صبرى السوربونى وشفيق غربال ومحمد رفعت، بل وتلاميذهم، وإن برز بينهم أحمد عزت عبدالكريم، الذى قدم أطروحته عن تاريخ التعليم فى مصر فى عهد محمد على وخلفائه، وحتى هذه الرسالة رغم موضوعها الاجتماعى، إلا أنها عالجت التطور التاريخى والمؤسسى والتنظيمى والإدارى للموضع أكثر من الاهتمام بمجتمع المدرسة من طلاب ومعلمين، مجتمع خرجوا منه ومجتمع يتخرجون إليه، ولعل هذا الأستاذ الجليل استكمل دوره ومشروعه فى أبنائه وتلاميذه، وكان رءوف عباس فى طليعتهم، فقد وجد لديه حسًا اجتماعيًا رشيدًا، فوافق على أن يدرس

الحركة العمالية فى مصر منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى قيام ثورة يوليو، فسجل رسالته للماجستير تحت عنوان «الحركة العمالية فى مصر ١٨٩٩ – ١٩٥٢» وهى التى صدرت فى كتاب عام ١٩٦٨. وكان موضوعًا جديدًا تمامًا وجريئًا فى حينه لم يسبق دراسته، وكان اتجاه رءوف عباس فى دراسة التاريخ الاجتماعى للحركة ملفتًا وجديدًا فى أوائل الستينيات من القرن العشرين فى مجتمع المؤرخين والمثقفين جميعًا، ووسط اتجاه طاغ على الدراسات التاريخية وهو الاتجاه السياسى، ومن هنا كانت ريادته، صحيح أن هذا الاتجاه الجديد للنهر تعمق مجراه واتسع بدراسات جديدة له ولمجايليه وتلاميذه، لكن يبقى له فضل الريادة العلمية الأكاديمية لهذا الاتجاه، فهو الذى حفر نهره فى الدراسات التاريخية وفى مدرسة التاريخ المصرى الحديث والمعاصر.

فكان رءوف عباس فى طليعة الجيل الرابع من أجيال (أو طبقات) المؤرخين فى المدرسة التاريخية العلمية المصرية فى مجال التاريخ الحديث والمعاصر إذ جاز لنا أن نعتبر أن الجيل الأول هو جيل السوربونى وغربال ورفعت، وأن الجيل الثانى كان جيل أستاذه، وأستاذنا، عزت عبدالكريم وعبدالعزيز الشناوى وفؤاد شكرى وغيرهم، ثم كان الجيل الثالث الذى كان فى طليعته أحمد عبدالرحيم مصطفى ومحمد أنيس وأضرابهما.

ولكى يتعمق فارسنا فى هذا الاتجاه من الكتابة (وهو التاريخ الاجتماعى) سجل أطروحته للدكتوراة عن تاريخ «الملكيات الزراعية

الكبيرة وأثرها على المجتمع المصرى ١٨٣٧– ١٩١٤» التى أتمها عام ١٩٧١، وهى الدراسة التى صدرت عام ١٩٧٣ بعنوان «النظام الاجتماعى فى مصر فى ظل المكليات الزراعية الكبيرة»، ثم ملك عليه هذا الاتجاه نفسه فوضع كتابًا آخر عن «الحركة العمالية فى مصر فى ضوء الوثائق البريطانية ١٩٢٤ – ١٩٣٧» نشر عام ١٩٧٧، وحتى أواخر التسعينيات من القرن الماضى ظل اهتمامه وحدبه على هذا الاتجاه قائمًا عندما أصدر كتابه – بالاشتراك مع عاصم الدسوقى – عام ١٩٩٩ عن «كبار الملاك والفلاحين فى مصر ١٨٣٧ – ١٩٠٢» حتى لقد استطاع أن يكون من تلاميذه مدرسة متميزة فى التاريخ الاجتماعى أثرت مكتبة التاريخ المصرى والعربى بدراسات جديدة وأصيلة، تخطت المفهوم الضيق للتاريخ الاجتماعى، إلى معالجة التاريخ السياسى برؤى اجتماعية، أثرت فى الجيل اللاحق له الذى قدم نفر منه موضوعات التاريخ السياسى برؤية اجتماعية وبمضمون اجتماعى واضح.

لقد كتب أحمد عزت عبدالكريم فى تقديمه لدراسة رءوف عباس عن الحركة العمالية موضحًا هذا التحول الجديد قائلاً «إن هذه الدراسة هى ثمرة الاتجاه الجديد للتأريخ الاجتماعى لمصر الحديثة بعد أن طغى الاهتمام بالتاريخ السياسى على ما عداه وخاصة تاريخ الأمراء والحاكمين أو تاريخ الحركات السياسية بصفة عامة، وأن توفيقه يضيف إلى تاريخ البناء الاجتماعى لبلادنا لبنة جديدة، بل ركنًا مهمًا يدعم هذه الاتجاه وينير جوانبه».

لقدانتقل رءوف عباس من معالجة هذه الشريحة الخطيرة والمهمة وهى العمال وحركتهم للدفاع عن مصالحهم الخاصة وعن مصالح الوطن عامة ضد الإمبريالية حيث مضت هذه الحركة تحمل هذا العبء المزدوج، فدرس تكوينها ومشكلاتها وكفاحها النقابى والسياسى فى عمل تاريخى اتسم بالموضوعية والتجرد، فتم عملا يتجاوزه الزمن، وأعيد طبعه طبعات عديدة.

انتقل بعد ذلك رءوف عباس إلى دراسة الفلاحين وأهل الفلاحة والأرض، تدعيمًا لاتجاهه فى التاريخ الاجتماعى والاقتصادى فانتقل من المدينة إلى الريف، من عمال المدن إلى ملاك الأراضى فى الريف وما ارتبط بهذه الملكية من نظام اجتماعى، فقام دراسته التى اشرنا إليها والتى تعد دراسة رائدة فى مجالها عن «الملكيات الزراعية الكبيرة».. التى نبهت الباحثين إلى أهمية هذا الاتجاه فتوالت دراسات زملائه وتلامذته تعالج فترات أخرى من أوضاع الملكليات والفلاحين والريف المصرى.

كما قدم رءوف عباس دراسة متفردة عن «حزب الفلاح الاشتراكى ١٩٣٨ – ١٩٥٢» عام ١٩٧٣، بالإضافة إلى دراسة عن «استقرار الملكية القروية للأرض الزراعية» شارك بها فى ندوة عن الأرض والفلاح أقامتها الجمعية التاريخية عام ١٩٧٤، وفى العام التالى ظل المجتمع الريفى شغله الشاغل، فأعد دراسة قدمها لندوة عبدالرحمن الجبرتى، تناول فيها تصوير الجبرتى للمجتمع الريفى.. صدرت ضمن كتاب الندوة عام ١٩٧٥، كما أعد دراسة عن «وقف

الإنجليز من المصالح العمالية فى خلال الثلاثينيات» ضمها إلى كتاب بحثى فى التاريخ الحديث الذى أهداه تلاميذ عزت عبدالكريم إلى أستاذهم عام ١٩٧٦..

وهكذا فى كل ندوة أو مؤتمر علمى كانت قضايا العمال والفلاحين والمجتمع المصرى نصب عينيه، وفى مجال اهتمامه منذ السبعينيات من القرن العشرين الذى أسهم فى بلورة مدرسة علمية متميزة فى التاريخ الاجتماعى لمصر الحديثة والمعاصرة، بفضل جهوده الرائدة وبفضل رعايته العلمية لتلاميذه.

ابـــن جيـــل الستينيـــات الذى وعى التاريخ الاجتماعى

د. عاصم الدسوقى(*)

عندما أخذ دور الدولة فى النشاط الاقتصادى والمسئولية الاجتماعية يزول تدريجيا ابتداء من منتصف سبعينيات القرن العشرين واكتمل اختفاؤه منذ منتصف الثمانينيات فصاعدا، وبدأ الهجوم على فترة ثورة يوليو زمن حكم جمال عبد الناصر (١٩٥٢-١٩٧٠) ودمغها بالشمولية وعدم الواقعية، انتفض نفر من الكتاب والأدباء والفنانين وأساتذة الجامعات يدافعون عن ذلك الزمن "الجميل" الذى شهد نموهم الفكرى وإبداعاتهم الفنية والأدبية بفضل ثورة الضباط الأحرار واستيلائهم على الحكم، وهى الثورة التى أتاحت الفرصة للعمال والفلاحين والشرائح الدنيا من الطبقة الوسطى لكى يحققوا حلمهم فى التعلم بالمجان وتولى الوظائف

(*) استاذ التاريخ الحديث كلية الآداب - جامعة حلوان.

العامة. . وأصبحت الستينيات تمثل المرجعية الأساسية والمقياس الحقيقى للمقارنة بين أحوال مصر قبل ١٩٥٢ وبعد عام ١٩٧٠ فى كل مجالات الحياة.

تلك هى الستينيات التى صافحها جيل رءوف عباس من طلاب الجامعة الذين أنهوا درجتهم الجامعية الأولى (الليسانس أو البكالوريوس) مع أول الستينيات. وكان هذا الجيل قد التحق بالجامعة فى منتصف الخمسينيات وقد شهد صدور قرارات الإصلاح الزراعى، وحماية العمال من الفصل التعسفى، وخروج الإنجليز من مصر، ثم تأميم شركة قناة السويس، ووقائع العدوان الثلاثى على مصر (٢٩ من أكتوبر ١٩٥٦)، وحركة التأميمات الكبرى لوسائل الإنتاج الكبيرة وتكوين القطاع العام وقيام الدولة بالمسئولية الاجتماعية تجاه المواطنين ورعايتهم لمواجهة احتياجات الحياة ومتطلباتها. وكان هذا يعنى فى أبسط الأحوال تغير المناخ السياسى فى مصر الذى كان له تأثيره على المناخ الفكرى.

وفى هذا المنعطف نشأ جيل الستينيات الذى التحق بعض أبنائه من خريجى أقسام التاريخ بالدراسات العليا فى فرع التاريخ الحديث وتفتحت آفاقه على موضوعات للدراسة والبحث لم تكن متاحة فى الجامعة المصرية قبل ١٩٥٢، ذلك أن تلك الجامعة كانت تخضع للمناخ السياسى والاجتماعى المحافظ، فلم يكن هناك اهتمام بدراسة التاريخ الاجتماعى لمصر، واقتصر الاهتمام على دراسة أحد موضوعات التاريخ الاقتصادى- الاجتماعى ألا وهو الزراعة التى

كانت مجال اهتمام باحثين اثنين حازا شهرة بعد ذلك فى التاريخ الاقتصادى، أولهما أحمد الحتة الذى أعد رسالته للماجستير عام ١٩٣٤ عن "الفلاح المصرى فى عهد محمد على" والدكتوراة فى ١٩٤٦ عن "تطور الزراعة المصرية فى النصف الأول من القرن ١٩". والثانى أمين مصطفى عفيفى الذى أعد فى ١٩٣٦ رسالته للماجستير عن "استقرار الملكية الفردية للأراضى الزراعية فى مصر"، والدكتوراة فى ١٩٤٦عن "تجارة مصر فى عهد محمد على". ولكنها دراسات اقتصرت على استعراض مشروعات الرى والتوسع فى الزراعة وأنواع المحاصيل والتجارة الداخلية والخارجية دون تركيز على النتائج الاجتماعية للسياسات الاقتصادية من حيث تبلور التقسيم الطبقى مثلا وتداعيات ذلك فى المجتمع سياسيا وقانونيا (تشريعيا) وثقافيا. ويضاف إلى ذلك رسالتان عن التعليم أعدهما أحمد عزت عبد الكريم واحدة للماجستير فى ١٩٣٦ عن "التعليم فى عصر محمد على"، والدكتوراة فى ١٩٤١ عن "التعليم فى أواخر عصر محمد على وأوائل حكم توفيق " تناول فيهما منجزات أسرة محمد على فى التعليم من حيث المدارس وأنواعها والمقررات الدراسية.

ولكن بقيام الثورة فى ١٩٥٢ حدث تحول فى المناخ السياسى القائم بانعطاف نظام الحكم نحو الاشتراكية سياسيا واقتصاديا. وكانت الموجة آنذاك موجة التحرر من الاستعمار فى العالم الثالث وتأسيس حركة الحياد الإيجابى وعدم الانحياز، ومن ثم اندمجت

الثورة المصرية بكل ثقلها فى معترك حركة التحرر الوطنى والاجتماعى بدعم الثورات الوطنية العربية، وبقرارات التأميم الكبرى ١٩٦١، وبإصدار ميثاق العمل الوطنى ١٩٦٢ الذى اعتمد "الاشتراكية" منهجا. وكان لهذا المناخ الجديد أثره فى تبنى التفسير الاقتصادى للتاريخ دون خوف من ملاحقات أمنية، وكذا البحث فى موضوعات التاريخ الاجتماعى وإشاعته بين دوائر المثقفين والكتاب.

وفى هذا المناخ انطلقت الأفكار من عقال التصور المثالى للأشياء إلى البحث عن الأسباب المادية التى يقبلها العقل دون انسياق وراء العاطفة، وخرجت كراسات التثقيف الشيوعية عن واقع المجتمع المصرى إلى الشارع وعرفت طريق المطبعة وأصبح بين يدى عامة القراء دراسات فى تاريخ مصر الاقتصادى- الاجتماعى أبرزها كتاب إبراهيم عامر "ثورة مصر القومية" (١٩٥٦)، وكتابه " الأرض والفلاح: المسألة الزراعية فى مصر" (١٩٥٨)، وكتاب شهدى عطية الشافعى عام ١٩٥٧ "تطور الحركة الوطنية المصرية ١٨٨٢-١٩٥٦"، ثم كتاب فوزى جرجس عام ١٩٥٨ "دراسات فى تاريخ مصر السياسى منذ العصر المملوكى".

ولم تكن الجامعة المصرية بعيدة عن تأثيرات هذا التحول السياسى الجديد إذ أصبحت الساحة ملائمة لإعادة صياغة التفكير السياسى بين طلاب أقسام التاريخ على يد قلة قليلة من الأساتذة. وفى هذا الإطار بدأ تدريس الاشتراكية ببعض أقسام التاريخ ضمن محتوى مقرر "نظريات سياسية" وما ارتبط بذلك من عقلنة دراسة

التاريخ والبحث عن الأسباب المادية فى تطور حلقاته. وقد حمل عبء هذا التكوين محمد أنيس بآداب القاهرة وأحمد عبد الرحيم مصطفى بآداب عين شمس وذلك من خلال محاضراتهما فى تاريخ مصر وأوربا والعالم العربى. وكان محمد أنيس من ناحية أخرى يقوم فى الستينيات بإلقاء محاضرات بالمعهد العالى للدراسات الاشتراكية عن "تطور المجتمع المصرى من الإقطاع إلى الاشتراكية" بحثا عن تأثير الأوضاع الاقتصادية على التكوين الطبقى للمجتمع المصرى (نشرها فى مجلة الكاتب على حلقات فى ١٩٦٦ ثم نشرها عام ١٩٦٨ فى كتاب بعنوان "التطور السياسى للمجتمع المصرى الحديث" ثم ضمنها كتابا عنوانه "الجذور التاريخية لثورة يوليو ١٩٥٢" بالاشتراك مع السيد رجب حراز ١٩٦٩).

غير أن ثمرة هذا النبت الجديد لم تتضح إلا فى الستينيات (القرن العشرون) حين بدأ نفر من الجيل الذى تخرج فى مطلعها يهتم بموضوعات التاريخ الاقتصادى- الاجتماعى تشبعا بالأفكار التى استمع إليها فى المحاضرات كما سبقت الإشارة، وتأثرا بكتابات اليساريين المصريين فى المجلات الثقافية المتخصصة مثل الطليعة والكاتب، ونتيجة لبرامج التثقيف السياسى اشتراكيا لمن التحق بصفوف منظمة الشباب الاشتراكى والمعهد العالى للدراسات الاشتراكية.

وهكذا عندما بدأت السبعينيات وفى خلال عامين (١٩٧١-١٩٧٣) كان كل من رءوف عباس (١٩٧١) ومحمود متولى (١٩٧٢) وعاصم

الدسوقى وعبد الرحيم عبد الرحمن وعلى بركات (١٩٧٣) قد أنجزوا رسائلهم لدرجة الدكتوراة فى موضوعات تاريخ مصر الاقتصادى-الاجتماعى فى العصر الحديث. ففى قسم التاريخ بآداب عين شمس أعد رءوف رسالته عن "النظام الاجتماعى للملكيات الزراعية الكبيرة فى مصر ١٨٣٧-١٩١٤"، ومحمود متولى عن "الأصول التاريخية للرأسمالية فى مصر وأثرها ١٩٢٠-١٩٦١"، وعاصم الدسوقى عن "كبار ملاك الأراضى الزراعية ودورهم فى المجتمع المصرى ١٩١٤-١٩٥٢"، وعبد الرحيم عبد الرحمن عن "الريف المصرى فى القرن الثامن عشر"، وعلى بركات عن "تطور الملكية الزراعية فى مصر وأثره على الحركة السياسية ١٨٤٦-١٩١٤" أعدها بجامعة القاهرة -كلية الآداب. وكان رءوف عباس قد أنجز رسالته للماجستير فى ١٩٦٦ عن "الحركة العمالية فى مصر ١٨٩٩-١٩٥٢"، وأنجز عاصم الدسوقى رسالته للماجستير فى ١٩٧٠ عن "مصر فى الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩-١٩٤٥".

ولأصحاب هذه الرسائل دون مزايدة، فضل ريادة التناول الكلى للموضوع فى ظواهره العامة أكثر من دقائقه التفصيلية مع بعض استثناءات قليلة حاول أصحابها الاتكاء على التفسير الاقتصادى للتاريخ بدرجة أو بأخرى بحثا عن الطبقة، وأصول ملكيتها، وعلاقاتها الإنتاجية، وموقفها السياسى والاجتماعى، وطبيعة الحياة فى مجتمع الريف. ويبدو واضحا أن اختيار هؤلاء الدارسين لموضوعات رسائلهم جاء بمبادرة شخصية من جانبهم متأثرين فى

ذلك بالتيار الواقعى الجديد فى مصر ولم يكن من اختيار أساتذتهم أو توجيههم، بل لقد كانت اختياراتهم مفاجأة لأساتذتهم المشرفين الذين اعتادوا الإشراف على موضوعات فى التاريخ السياسى فى الغالب الأعم. وأكثر من هذا فان بعض المشرفين اعترضوا على استخدام طلابهم لمصطلحات الطبقة الاجتماعية والقوى الإنتاجية وعلاقات الإنتاج. . الخ. والدليل على ذاتية الاختيار أنه منذ أنهى هؤلاء "الرواد" رسائلهم لم تناقش رسالة فى التاريخ الاقتصادى-الاجتماعى إلا فى الثمانينيات وبفضل إشراف أولئك الرواد.

أما **رءوف عباس** فيذكر أن سبب اتجاهه لدراسة موضوعات فى التاريخ الاقتصادى-الاجتماعى يعود إلى عمله عقب تخرجه بالشركة المالية والصناعية بكفر الزيات (١٩٦٢) وكانت الشركة قد خضعت لتأميم يوليو ١٩٦١، ووجد أن الشركة تمور بحركة نقابية نشطة لإسقاط النقابة القائمة التى جاءت بتدخل أصحاب الشركة الرأسماليين وانتخاب نقابة جديدة، فدفعه هذا إلى البحث فى الحركة النقابية فكانت الماجستير التى وضعته على أول طريق هذا الفرع. وفى الدكتوراة اتجه إلى دراسة الملكيات الزراعية الكبيرة فى مصر، ثم تابع معظم بحوثه فى هذه الجانب فضلا عن توجيه طلابه لإعداد رسائلهم فى هذا المجال.

ومحمود متولى عمل بالغرفة التجارية المصرية فكانت الفرصة مواتية أمامه للاطلاع على حقائق النشاط الرأسمالى التجارى، كما عمل محاضرا فى مراكز الثقافة العمالية التى أنشأتها المؤسسة

الثقافية العمالية التابعة للاتحاد الاشتراكى العربى (تأسست فى ١٩٦١)

وكانت برامج هذه المراكز التى انتشرت فى كل محافظات مصر تستهدف تثقيف العمال والفلاحين بالتحولات الثورية الجديدة بعد الإصلاح الزراعى والتأميم، وتقديم تاريخ مصر بالتركيز على النضال الوطنى ونضال الطبقة العاملة، وبالتالى كان من الطبيعى أن يتجه محمود متولى لدراسة موضوع فى الرأسمالية المصرية.

وعلى بركات نشأ فى قرية من قرى الصعيد بأسيوط تميزت بتركز شديد فى الملكية الزراعية فى يد قلة قليلة مع ضيق مساحة الوادى فى الجنوب، وعاصر وهو صغير نسبيا كما حدثنى، أثر الإصلاح الزراعى الذى قامت به ثورة يوليو فى سبتمبر ١٩٥٢ وسمع من أفراد العائلة الممتدة وعائلات الجوار قصصاً وروايات عن علاقات الملكية. وفى مطلع الستينيات التحق بمنظمة الشباب الاشتراكى ثم بالمعهد العالى للدراسات الاشتراكية وعمل بالتثقيف السياسى لبعض الوقت. وكان لذلك تأثيره ولا شك على اختياره للكتابة عن تأثير الملكيات الزراعية على الحركة السياسية، ثم تابع بحوثا فى ذات الموضوع حيث كتب عن "الملكية الزراعية فى مصر بين ثورتين"، وكتب أيضا "رؤية على مبارك لتاريخ مصر الاجتماعى».

وعبد الرحيم عبد الرحمن نشأ أيضا فى قرية من قرى الصعيد بمحافظة سوهاج وعاش هناك الحياة الريفية العادية حتى غادرها إلى القاهرة ليعمل ويدرس بالجامعة. وكان دائم الحديث معى عن

أحوال الريف المصرى واختلافه عن حياة المدن وخاصة القاهرة التى صدمته لاختلاف القيم الأخلاقية التى تحكم أهلها وله فى هذا نوادر. ثم جاءته الفرصة لدراسة بعض أصول العلاقات داخل الريف المصرى من خلال نظام الالتزام الذى طبقه العثمانيون فى مصر، وتحول فيه الملتزم من جامع ضرائب لخزينة الدولة إلى حاكم أو "أمير إقطاعى" كما كان علماء الحملة الفرنسية فى مصر يعتقدون، فكانت دراسته عن الريف المصرى فى القرن الثامن عشر. ثم اتجه فى معظم بحوثه بعد ذلك إلى التاريخ الاجتماعى لمصر العثمانية فى موضوعات طوائف الحرف والتجار وعناصرها من المغاربة والشوام والحجازيين. .الخ.

وأما **عاصم الدسوقى** كاتب هذه السطور فقد عينته القوى العاملة بإدارة التدريب المهنى بالمعهد الفنى العالى للمصانع الحربية (مارس ١٩٦٢). وفى خلال الفترة من مارس ١٩٦٤ إلى نهاية ١٩٧٠ كان قد تكون فكريا وسياسيا بطريقة مغايرة لما تعلمه فى الجامعة إذ التحق بمنظمة الشباب الاشتراكى (مارس ١٩٦٤) وفيها قرأ «هيجل» وعرف الماركسية وقرأ ميثاق العمل الوطنى وعمل بالتثقيف السياسى فى دائرة قصر النيل، وانتدب للمؤسسة الثقافية العمالية التابعة للاتحاد الاشتراكى العربى (يناير ١٩٦٦–ديسمبر ١٩٦٩) فارتبط بقضايا العمل والعمال وألقى محاضرات فى برامج مراكز الثقافة العمالية عن تاريخ مصر وتاريخ الحركة النقابية، وعمل محررا فى مجلة "العمل" (تصدرها وزارة العمل) يجرى تحقيقات صحفية

عن "الريف المصرى بصراحة" وعن "قضايا عمال القطعة والإنتاج" فانفتحت أمامه آفاق جديدة مغايرة للدراسة الجامعية وتذكر ساعتها مقولات والده عن حكومة محمد محمود الحديدية، عدو الدستور، وإسماعيل صدقى، عدو العمال، ومن خلال الفترة من يناير ١٩٧٠ إلى إبريل ١٩٧٤ عمل محاضرا لمقررى "القومية العربية" و"المجتمع الاشتراكى" بالمعهد الفنى العالى للمصانع الحربية. وكان هذا التكوين قبل أن يسجل رسالته لدرجة الماجستير (١٩٦٧) عن مصر فى الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩-١٩٤٥، وكان العنوان الذى اقترحه فى الأصل "المجتمع المصرى" لولا أن أستاذه المشرف أحمد عبد الرحيم مصطفى رأى حذف كلمة "المجتمع" والاكتفاء بكلمة "مصر" حتى لا تختلط الأمور مع الاجتماعيين، وتجنبا لأى اعتراض من آخرين عند التسجيل. لكن الخطة لم تتغير لأن الدراسة اشتملت على تأثير الحرب على الأحوال الاقتصادية والاجتماعية وكذا تيارات الفكر السياسى-الاجتماعى. ثم كانت الدكتوراة عن كبار ملاك الأراضى الزراعية استمرارا لهذا الاتجاه الذى تكاملت فيه زوايا مثلث الاقتصاد والسياسة والاجتماع. وبهاتين الدراستين دخل مع أقرانه دائرة الباحثين فى التاريخ الاقتصادى-الاجتماعى. وفى ١٩٨١ نشر دراسة بعنوان "نحو فهم تاريخ مصر الاقتصادى الاجتماعى" ليناقش ما إذا كانت مصر قد شهدت مرحلة إقطاعية ومرحلة رأسمالية طبقا للمقولات الماركسية. وكانت هذه النقطة تشغل باله منذ إعداده للدكتوراة وأخذ يجمع لها المادة اللازمة منذ ١٩٧٣.

تلك هى الظروف التى تكون فيها هؤلاء "الرواد" الذين أعدوا دراساتهم الأولى فى موضوعات تاريخ مصر الاقتصادى-الاجتماعى. وعندما أتيح لبعضهم أن يتولى مناصب جامعية، بادر بتطوير الدراسة بقسم التاريخ قدر الاستطاعة وهم: رءوف عباس (رئيس قسم التاريخ بآداب القاهرة ثم وكيلا للكلية للدراسات العليا)، وعاصم الدسوقى (عميد آداب سوهاج وآداب حلوان)، وعلى بركات (عميد آداب المنصورة)، ومحمود متولى (رئيس قسم التاريخ بآداب المنيا). ونجح هؤلاء منذ مطلع الثمانينيات تقريبا فى إدخال مقررات: فلسفة التاريخ، والتاريخ الاقتصادى، وتاريخ مصر الاجتماعى، ومبادىء علم الاجتماع، ومناهج البحث، ومبادىء الاقتصاد.

كان معظم أبناء جيل الستينيات قد ارتبطوا بالسياسة بدرجة أو بأخرى بتشجيع من المناخ العام وكانت مجلتى "الطليعة" و"الكاتب" مصدرهم فى التعرف على كثير من وقائع الحياة السياسية وقد نبهتهم إلى أهمية دراسة تاريخ مصر الاقتصادى-الاجتماعى. غير أن رءوف كان منكبًا على القراءة فى موضوع التاريخ حسب المقررات الدراسية وفى إطار التوجهات الفكرية لأساتذته كلٍ حسب مشربه، مبتعداً عن النشاط السياسى. ولما عين بعد تخرجه فى أحد شركات القطاع العام فى مطلع ١٩٦٢ ارتبط بوحدة الاتحاد الاشتراكى فى الشركة وكان هو التنظيم السياسى القائم. وسرعان ما ترك الشركة فى أواخر ١٩٦٦ عندما حصل على منحة تفرغ لدراسة الدكتوراة بجامعة عين شمس. وفى أثناء إعداده لأطروحة

الدكتوراة تم تعيينه معيداً بجامعة القاهرة فى أواخر ١٩٦٧ وكان الوقت آنذاك زمن منظمة الشباب الاشتراكى، ولكنه لم يلتحق بالدورات الخاصة بإعداد قيادات الشباب فى مختلف قطاعات التعليم والإنتاج والخدمات. وعندما بدأت الحياة الحزبية من جديد زمن السادات (١٩٧٦-١٩٧٧) لم ينضم إلى أى حزب من الأحزاب التى ظهرت على الساحة، وكلما شهد الصراعات الحزبية والتصفيات السياسية تمسك أكثر وأكثر بموقفه. وتفرغ أكثر للبحث العلمى وإعداد مدرسة لتغطية تاريخ مصر الاجتماعى. وكان فى دراساته موضوعيا وليس ذاتيا وبعبارة أخرى كان علميا وليس سياسيا، ونجح فى الاحتفاظ باستقلاله الفكرى إلا من الموضوعية ودون التزام بتوجهات سياسية أو مذهبية ثابتة أو الخضوع لمقولات سابقة.

ورغم هذه الموضوعية الصارمة فى كتابة التاريخ عند رءوف عباس واستقلاله السياسى، إلا أن ذلك لم يمنعه من الانضمام مؤخرا إلى حركات سياسية معارضة بحثا عن عدالة الحكم ونزاهته، وهو ما كشف عنه فى مذكراته "مشيناها خطى"، وفى ارتباطه بمجموعة «٩ مارس» من أجل استقلال الجامعة، ثم حركة "كفاية" من أجل التغيير، الأمر الذى جعل البعض يظن أنه اندمج فى المعارضة السياسية لكن يبقى التأكيد على أن الموقف السياسى عنده كما بدا فى "كفاية" وجماعة «٩ مارس» شىء وكتابته للتاريخ شىء آخر، فإذا كان فى السياسة والحال كذلك ملتزما إلا أنه فى البحث ظل موضوعيا.

دنيا المؤرخين فى الستينيات
إشارة إلى الدراسات المبكرة لرءوف عباس

د. بيتر جران(*)

أعترف أنّ قوْلى اليوم قد لا يكون له موضوعية كبيرة لأن رءوفًا كان صديقى وزميلى ومنذ سنوات تكوينى، و إلى الآن أجدُ اسمَهُ على غلاف كتبى أو فى الشكر الواجب بالداخل لِما قدمه لى من مساعدة.

وعندما تأملتُ فى حياته العلمية قَفَزَ إلى ذِهنْى سؤال وهو : هل يمكن أن أقارن رءوف بغيره من المؤرخين من جيله. ..؟. والجيل فى مفهومى لا يعنى نفس العمر وإنما يعنى نفس فكر التكوين العلمى ـ الأكاديمى والعصر السياسى الذى ظهر فيه أبناء الجيل الواحد. وهنا خَطَر ببالى أن أقارنه باثنين أحدهما الإنجليزى: وهو إيريك هبسبوم والثانى الأمريكى: يوجين جنوفيسى.

* استاذ التاريخ الحديث- جامعة تيمبل فيلادلفيا- الولايات المتحدة الأمريكية.

فمن الملاحظ أن ثلاثتهم كانوا من الرواد فى مجال التاريخ الاجتماعى من الناحية العلمية، ،من الناحية السياسية عاصروا نهاية عصر الرأسمالية الإنتاجية وبداية الرجوع إلى الرأسمالية المالية أى نهاية العقد الاجتماعى وبداية عصر الانفتاح.

وقد وفر التحولُ من عصر إلى عصر فُرصًا جديدةً للمؤرخين واستفادت مجموعة منهم استفادةً كبيرةً من تكيّفهم وقبولهم للجديد، ولكن تحفظ عدد منهم فى عدة دول وهم الذين لم يتكيفوا أو رفضوا الجديد فأصبحوا مهمشين، والذين طلبوا شيئًا مقابل قبولهم للجديد كانوا نادرين بل لعبوا كالدكتور رءوف دورًا فكريًا مهمًا.

كما كون كل من الثلاثة مدرسة تاريخية وهذا أيضًا كان شيئًا نادرًا جدًا بالإضافة إلى أنهم كانوا نقاد للنظام السياسى فى بلادهم. ولم يشكل هؤلاء الثلاثة مدارس فكرية فى الوسط الأكاديمى بسهولة. . فمثلا كان فى مصر عدة مدارس تاريخية عبر التاريخ الحديث : كانت هناك مدرسة ملكية، ومدرسة وفدية ليبرالية، ونلاحظ أن هاتين المدرستين كانتا مرتبطتين بِمراكز القوة وهذا بالاختلاف تماما عن مدرسة التاريخ الاجتماعى لنا اليوم.

أتناول الآن النموذج الأول من المؤرخين الثلاثة: **أريك هبسبوم** وهو من مواليد إسكندرية ١٩١٧ واسم والده فى الأصل استبوم ولكن القنصل الإنجليزى فى الإسكندرية أخطأ وسجل اسمَهُ هبسبوم.

عاش هبسبوم فى وقت تدهور حزب العمال الإنجليزى، ووقت تدهور دولة الرَفاهية، أى وقت الانتقال من الرأسمالية الصناعية إلى

الرأسمالية المالية. وآنذاك وجدنا بعض المؤرخين فى إنجلترا قد أيدوا هذا الانتقال، وانتقده البعض الآخر ورفضوا التكيف معه. وقد كتب هبسبوم فى أحدٍ من أبرز كتُبِهُ عن الجذور الرأسمالية المالية وهذا الكتاب اسمه " عصر رأس المال ١٨٤٨ـ ١٨٧٠ " مطبوع فى ١٩٧٥. وفى هذا الكتاب يقدم هبسبوم آراءَهُ عن القومية والهجرة والعلم ويُعطينا صورة سلبية للرأسمالية فى القرن التاسع عشر فى بلده. وهذه الصورة ليست بعيدة عن صورة الرأسمالية فى مصر الموجودة فى كتاب د / رءوف " النظام الاجتماعى ".

على أن التشابهُ بين هذين الكتابين تشابُهًا تطابقيًا لأن مصر كانت أيضًا فى حالة الانتقال من الرأسمالية الإنتاجية إلى الرأسمالية المالية أو الرأسمالية المضاربة أى الانفتاح الذى كان أساسًا لصالح كبار الملاك الذين عادوا إلى ساحة النشاط الرأسمالى الفردى. وقد كانت محاولة رجوع كبار الملاك إلى المسرح فى مصر قد حدثت بالضبط ما بين حادث كمشيش ١٩٦٥ وحرب ٦٧ وهذا كان أيضًا وقت تكوين د. رءوف وبعض زملائه كالدكتور عاصم الدسوقى والدكتور على بركات والدكتور عبد الرحيم وغيرهم من المؤرخين المشهورين.

والآن أتناول كتاب رءوف: (النظام الاجتماعى فى ظل الملكيات الكبيرة) ١٩٧٣ ففى هذا الكتاب صور الدكتور رءوف الملاك كجزء مهم من تاريخ مصر الحديث ولكن ليس كجزء من التاريخ القومى (السياسى) فقد بدأ كتابه بعام ١٨٣٧ أى بعد زمن إصلاحات محمد

على وتوقف عند ١٩١٤ أى قبل ثورة ١٩١٩.

وهذا الكتاب رد على سؤال من كان كبار الملاك، وما هو نظام ملكية الأراضى الزراعية فى القرن التاسع عشر، وما هى المصادر التى نعرف منها حجم الملكية الزراعية وأساسها. .؟ وكان الرد على الجزء الأخير من السؤال أنه لابد أن نعتمد أساسًا على الأرشيف المصرى الخاص بملفات الأطيان الزراعية. وكان رده على الجزء الأول من السؤال أن كبار الملاك كانوا مجموعة أفراد من الحكام والموظفين الكبار ومن شيوخ القبائل ومن الأجانب ومن غيرهم من الذوات. وفى القرن التاسع عشر كانت هذه المجموعة أو الطبقة قد نشأت مع نشأة السوق الدولية وكانت هذه المعلومات التى أوردها رءوف فى كتابه معرفة جديدة حتى فيما يتعلق بالمفاهيم.

صحيح أن التحليل الطبقى كان موجوداً من قبله عند الشيوعيين ولكنهم أخطأوا فى تطبيقه فى أشياء كثيرة نظراً لأنهم لم يستخدموا الأرشيف. ومن هنا فقد صحح كتاب الدكتور رءوف أفكار الشيوعيين الخاطئة عن الإقطاعية فى مصر. لقد كانت مصر بلداً رأسماليًا واستخدمت الرأسمالية الكائنات الإقطاعية الموجودة من قبلها.

كما صحح الكتاب الفكر السائد عن الطبقة الحاكمة. فقد كانت هذه الطبقة بالحقيقة أجنبية ومصرية فى نفس الوقت، وليست أجنبية فقط، ونتيجة لذلك فمن الصعب أن يلجأ الباحث إلى مفهوم الرأسمالية الوطنية فى النظر إلى طبيعة الملكية الزراعية الكبيرة فى مصر والذى يتعلق بوضع آخر لم يكن قائمًا فى مصر فى القرن

التاسع عشر وهى فترة كتاب رءوف. كما صحح الكتاب أيضًا موضوع الصراع الطبقى الذى كان قائمًا فى الريف مع الرأسمالية وفى المصانع فى المدن. والدليل على هذا أنك تجد فى الأرشيف إلى الآن نماذجَ من الصراع فى عقود الإيجار ما بين أصحاب الأرض والفلاحين ومن المعروف فى كتب الشيوعيين أنك تجد الصراع الطبقى عند العمال فقط. إلى آخره. ..

أتحول الآن إلى النموذج الثالث أى المؤرخ الأمريكى **يوجين جنوفيسى:** وهو من مواليد ١٩٢٠ وصاحب كتب كثيرة عن موضوع العبودية فى جنوب أمريكا وكان أهم كتبه the world the slave owners rave " الدنيا المتكونة لأصحاب العبيد " مطبوع ١٩٦٩.

والسؤال الأساسى فى هذا الكتاب يدور حول كيفية العلاقة بين وجود العبودية والإقطاعية ونشأة الرأسمالية. وقد تكون هموم جنوفيسى قريبة من هموم الدكتور رءوف حيث ناقش جنوفيسى دور ما يسمى plantation society، مجتمع العزبة التى لعبت دوراً جنبًا إلى جنب مع الصناعة فى شمال أمريكا.

وقد صرح جنوفيسى أن جنوب أمريكا قبل الحرب الأهلية كان نموذجًا من نماذج مجتمع العزبة الناضج وقصد بهذا أنك تجد فى جنوب أمريكا فلاسفة العبودية، وقد درس جنوفيسى أحدهم وهو جورج فتزهو الذى عاش (١٨٠٦-١٨٨١) وقد كتب هذا الرجل كتاباً مهمًا فى ذلك الوقت بالعنوان cannibals all on slaves without masters 1887 " الذين يأكلون لحوم البشر أى العبيد بلا أصحابهم

". وقد ناقش فيتزهو فى هذا الكتاب الظروف فى الجنوب والشمال قبل الحرب الأهلية وقال إن نظام عبودية الأجر فى الشمال أسوأ من عبودية البشر فى الجنوب، فليس كتاب جنوفيسى دفاعًا عن نظام العبودية، بل هو نقد لموقف الحزب الشيوعى فى أمريكا. فقد قال جنوفيسى إن التفسير الشيوعى مبنى على فرضية أن الجنوب عائق للشمال وهذا خطأ واضح. والحقيقة أن الرأسماليين الأمريكيين استخدموا العبودية. . وهذا هو نفس الشىء عند الدكتور رءوف.

والخلاصة أن هؤلاء المؤرخين الثلاثة هبسبوم، جنوفيسى، والدكتور رءوف، أصبحوا كلهم معروفين بتحليلاتهم المكتوبة فى عصر تدهور الرأسمالية الصناعية ولكلهم كان الانتقال إلى الانفتاح شيئًا صعبًا جدا فمثلاً أصبح هبسبوم بعد ١٩٨٠ ديمقراطيًا ولأول مرة، وأصبح جنوفيسى قوميًا جنوبيًا ومتدينًا فى الثمانينيات، وقد استبقى الدكتور رءوف سيطرته على قدرته لمواجهة الظروف الجديدة ومركزًا نقده على الفساد فى التعليم وعلى الطائفية المصطنعة كما ورد فى كتابه عن جامعة القاهرة وفى سيرته الذاتية (مشيناها خطى).

وفى الختام. . كلما أفكر فى حياة الدكتور رءوف وغيره من المؤرخين المهمين ألاحظ أن المؤرخ المهم هو مثقف ملتزم مرتبط بالتحولات السياسية والاقتصادية فى بلده على الأقل لجزء من حياته، وأنا أنتظر الآن فى مصر إن المواجهة مع صخور فى الحياة المعاصرة ستنتج جيلاً جديداً كجيل الدكتور رءوف.

المفكر البَّناء وقيمته

د. أحمد حلمى السيد

فى حال الدنيا ونظامها:

تنهض الأمم والأوطان على أيدى أبنائها الأكفاء الأذكياء المخلصين الأوفياء، ويمثلون طائفة "البنائين الأخيار". كما تُهدم الأمم وتُخرب الأوطان، عندما ينتشر الفساد بفعل المقيمين بالمكان، وحاملى جنسيته بالمولد، لا بالانتماء. ومن ثم فكل منهم ينظر إلى داخل نفسه – فهو منظومة منغلقة (Closed System)، ولا ينتج عنه إلا الأنانية، وعدم التعاون مع الآخر أو قبوله، فينتشر الأخذ بدلاً من العطاء، فيتفسخ الفكر، وتزول الحكمة، وتنعكس خصائص "الاجتماع الإنسانى" من الإيجابية إلى السلبية. وينتج عن هذا تداعى العلم والعلماء الخلص، والعمل الجاد القائم على العطاء، فتختفى الخبرات ويحتل أنصاف الرجال المناصب والقيادة، ثم يحل

محلهم الأصفار، ثم تصبح البيئة ممهدة لصعود "الهدامين الأشرار"، وبناء عليه ينقلب "منحنى الزمان"، ويختفى "الزمن الجميل" ويظهر "الزمن الردئ".

ويترتب على هذا انتشار الجهل وتغييب العقل، ويتبلد سلوك الإنسان فى الأغلبية الساحقة، وتبطئ حركة المجتمع الإنسانى فى مسيرتها حتى تصل لمرحلة الكسل الدائم. ومن ثم تتقلص "ظاهرة العمل" ويتوارى مبدأ تقسيم العمل، ويتوقف الإنتاج ويختفى "المجتمع المتوازن" سواء كان قائمًا على "التعاون البناء" أو على "التنافس البناء". وهذا هو "حال مصر الآن" فهى محاصرة فى "ذاتها" وفى أبعادها الأربعة، فى الوطن العربى والأمة الإسلامية ووادى النيل، وفى قيمتها – عبر الزمان – "كنصير دائم" لحركات التحرر والأمم والمجتمعات المستضعفة فى آسيا وأفريقيا وأمريكا للاتينية والعالم أجمع، وهو ما نطلق عليه "البعد العالمى" أو "البعد الرابع".

شموخ القامة والقيمة فى شخص رءوف عباس :

وهنا تظهر قيمة رءوف عباس، ومدى الفجيعة بفقده فى مصر والوطن العربى والأمة الإسلامية ولا يقتصر هذا على الكيانات التى انتمى إليها بإخلاص وجدية ونقاء، بل تمتد الفجيعة إلى المجتمع الإنسانى كافة باعتباره "منظومة" تسير بخطى واسعة نحو "التكامل البناء" لا "التفاضل الهدام" فهناك كيانات ودول ومجتمعات وأقليات ومنظمات فى "النظام السياسى العالمى الحالى" – النظام العالمى الجديد ؟!! – تسير على هدى الهدامين الأشرار، وخططهم " لهدم

وقلب وتشويه منحنى الزمان " ليتحول من الصعود إلى الهبوط، تمهيدًا لعملية "الإحلال" بالغزو المادى والمعنوى والفكرى.

ومن ثم فرءوف عباس حامد كمناضل ومفكر وبناء خير، هو إضافة لحركة التحرر فى مصر بأبعادها الأربعة، ولذلك فوجوده إضافة كبيرة، ورحيله خسارة لا تعوض.

فلقد كان رءوف عباس مقاتلاً جسورًا، وفارسًا نبيلاً، لا تلين عريكته فى إقرار العدالة بشتى صورها وأنظمتها. وهو فى دفاعه عن "الحق" ينظر إلى الهدف فقط ودون أى مؤثرات ذاتية، فهو منزه عن الهوى، ولا يبعده عن موقعه الدفاعى لومة لائم أو مصلحة شخصية. ولولا هذه الخصيصة الأصيلة فى نفسه لكان منتشرًا فى كثير من مراكز القيادة والمناصب العليا، التى قفز إليها الكثيرون اللذين آثروا السلامة بالوقوف موقف المتفرج السلبى الذى يرجح مصلحته الشخصية على الدفاع عن "الحق الذى هو فى حقيقته الوجه الآخر لعملة الانتظام فى نظام الكون".

وهنا تظهر قيمة وطول قامة وقدر وشموخ العالم الجليل ومربى الأجيال والإنسان رءوف عباس، فهو فاعل أصيل فى "انتظام المجتمع" وتجاذبه مع نظام الكون وأسسه، التى يمثل الحق والعدالة "معيار" أصيل فى ارتقاء و "وجود" الأمم والمجتمعات والمنظومات، وضياعه يؤذن بانهيار الأمم، واستمراره ينبئ بالمسيرة إلى النهاية المحتومة، وهى "العدم" والخروج من المكان والزمان، ومن ثم نهاية الكون.

ولما كانت الأمم ترتقى على أيدى أبنائها الأكفاء الأذكياء، فلقد كان الدكتور رءوف عباس يتميز بذكاء نادر، ومن أهم خصائصه سرعة البديهة، والقدرة العالية على الربط بين الجزئيات. ومن ثم فقد كانت قدرته على الاستيعاب عالية وفائقة السرعة، ثابتة فى صعودها واستمراريتها مهما طال زمن التلقى، فهو لا تصيبه غفوة فى ذهنه – فى ترددية المخ البشرى فى التلقى أحيانًا – بل كان عقله يعمل دائمًا بانتباه شديد وتركيز متميز. ويترتب على هذا قدرته المبهرة على استخلاص لب الموضوع والأسباب والنتائج، ووضعها فى قالب معرفى متميز ومتماسك يرتقى بالكتابة والإنتاج العلمى من مرتبة المعرفة (Knowledge) إلى مرتبة الفكر (Intelligence). ومن كثرة ما كتب رءوف عباس بهذا المستوى الرفيع، فلقد تميزت كتاباته بنوع من الحكمة (Wisdom) التى ارتقت بإنتاجه العلمى والفكرى إلى هذه المرتبة السامية، وعليه فلقد فقدنا رجلا حكيمًا فى عصر اختفت فيه الحكمة، وظهر نقيضها من أسفل سلم الارتقاء.

ولما كان سلم المعرفة يتكون من خمسة مراتب، أولها البيان Data ()، ثم المعلومة (Information) وتتوسطه المعرفة، ويتسيدها الفكر، وتتربع الحكمة على القمة، لذلك نجد الدكتور رءوف يقف شامخًا على القمة، وعلى النقيض فى هذا الزمان الأغبر والردئ، هناك الكثيرون ممن يتولون كثيراً من المناصب العليا ينحدرون إلى أسفل من مرتبة المعرفة إلى مرتبة المعلومة، بل الطامة الكبرى فى أن أغلبهم يصل إلى مرتبة البيان. ويلاحظ أن الدول الفاشلة ونظمها تكثر كثيرًا من

البيانات الرقمية الخداعة التى إذا ربطناها ببيانات أخرى نتجت عنها معلومة مختلفة تمامًا، وإذا ربط هذه المعلومة بمعلومات أخرى بناء معرفى مختلف، قد يؤدى إلى فكر مختلف. وهذه هى مصيبة مصر الكبرى حاليًا. ومن هنا تظهر الحاجة إلى الكثرة من طراز رءوف عباس وما يماثله فى الأوجه المتنوعة للنشاط الإنسانى بشقيه المعنوى والمادى، ليس هذا مطلوب فى مصر فحسب، بل هو مطلوب وبشدة فى كافة أبعادها الأربعة. وهو ما يترتب عليه الارتقاء وتوقف الهدم وزوال الغمة من قلب الأمة.

وتجدر الإشارة، أن الذكاء المبهر والألمعية الواضحة، لا تصح إلا بوجود عنصر العطاء، فنحن نعمل بجد وإخلاص لأنه كتب علينا ذلك وهذا من صفات البنائين الأخيار. فلابد من وجود الخبرة، والخبرة تنشأ من العمل بجد وإخلاص بهدف الإتقان والجودة التى هى من خصائص مسيرة التطور فى نظام الكون، كذلك لا يتم هذا الأمر إلا بالتعاون الذى يقوم على العطاء من أجل بناء المجتمع العادل الخير المتطور الصاعد الواعد. لذلك فإن توليفة الذكاء والعطاء، والبعد عن الأهداف المادية والأنانية، والاتجاه إلى خدمة الكل لا الجزء، من أجل العمل على ارتقاء الجماعة كهدف أسمى، تؤدى بالقطع إلى أعمار الكون عامة والعمران البشرى خاصة. وهذا هو ما كان يتحلى به أستاذنا الدكتور رءوف عباس فهو من التوليفات المتميزة والنادرة التى تجمع بين "شدة الذكاء وتواصل العطاء ونماذجهما". ولهذا الأمر كان بناء خيرًا ومبدعًا متميزًا وعطاءً كريمًا بدون حدود.

كل هذه الصفات والأمور كانت سبباً فى محبة الناس وكل أخيار المجتمع له، وحتى الأشرار الهدامين كانوا يخشونه ويهابونه. وعندما تسأل أى شخص عنه سواء تعرف عليه أو رآه من قريب أو بعيد تكون الإجابة الوحيدة والمتكررة التى أصبحت من كثرة ما سمعتها من الجميع – علامة وصفة ثابتة – هى "رجل محترم" وقد رسخ هذه الصورة أنه كان متزناً لا تظهر عليه شدة الانفعال، يستطيع التحكم فى غضبه أو استيائه فيحوله إلى طاقة لتحفيز فروسية المدافع عن الحق، ومن ثم كان دائمًا يحتفظ بهدوئه وهو يسمع، فيزداد تركيزه، وكذلك وهو يتكلم فيحسن اختيار الكلمات والردود. ومما زاد من تثبيت هذه الصورة وزيادة الاحترام أنه ذو أدب جم، عفيف اللسان، ولما كان هذا يمتزج بروح فكهة دون إسفاف، ودعابة رقيقة، واضحة صافية، لذلك كانت صورة الاحترام تمتزج بالمحبة والصفاء والود الذى يجعلك تحس بالعذوبة والنقاء.

ولقد كان أسكنه الله فسيح جناته يتميز بالصدق والصراحة فكنت تحس فى لقائك معه بالأمان، وتتكلم على سجيتك، فتتحول الجلسة إلى غذاء للنفس، فتقتسم معه همومك العامة والخاصة، وتتبادل معه الأفكار والحلول، فيزول عنك الضيق والغم، وتخرج من لقائه قادراً على الاستمرار والمواجهة والمجابهة والكفاح.

رحم الله الأستاذ الفاضل والعالم الجليل، الرجل المحترم والعطاء والجواد الدكتور رءوف عباس حامد، ونسأل الله أن يعوض مصر بأبعادها الأربعة عن فقدانه، وأن يطرح البركة فى الأجيال الجديدة

بأن يخرج منها الكثيرون الذين نرجو أن تسمح لهم الظروف بأن يحاكوه ويتخذوه قدوة ومثالاً يحتذى.

وأرجو فى هذا المقام من كل من يعمل فى حقل الإعلام أو فى وسائل الاتصال أن تكون وفاة هذا المحترم الخلاصة (Abstract) والعطاء ناقوسًا نبرز فيه خصائص وتكوين مثل هؤلاء الرجال المحترمين وحياتهم المبهرة، ليكونوا مثالاً وقدوة يحتذى بها النشء، بدلاً من أن تكون الساحة فارغة ومقصورة على النماذج الهدامة من أساطين الفساد، حتى ينشأ التوازن فى العرض، وفى تشكيل العقل المصرى وامتداداته وأبعاده.

تواصل الأجيال.. تجربة شخصية

د. مجدى جرجس

الفكرة ببساطة هى تقديم نموذج لباحث غير مشتغل بالتاريخ، وكيفية انجذابه لمدرسة رءوف عباس واستفادته بالأساس، أنا خريج قسم الوثائق والمكتبات بجامعة القاهرة، وحين تذكر الوثائق، يتبادر إلى الذهن العلاقة القوية بين الوثائق والتاريخ. إلا أن الصراع المحتدم بين تخصصى الوثائق والمكتبات داخل القسم على احتلال مناطق أوسع فى التخصص على حساب الآخر، جعلت علاقتنا بالتاريخ "من خلال مناهج الدراسة بالقسم"، هشة وسطحية، فعلى سبيل المثال كنا ندرس مادة واحدة للتاريخ، كالتالى : فى السنة الأولى المدخل إلى تاريخ مصر القديمة للدكتور سيد الناصرى "مقبول". السنة الثانية مصر الإسلامية للدكتور محمد بركات البيلى "مقبول". السنة الثالثة أيوبيون ومماليك للدكتور محمد محمد أمين "مقبول"، السنة الرابعة

تاريخ مصر فى العصر العثمانى للدكتور وجيه عتيق، ولكن كان الكتاب المقرر كتاب الدكتور رءوف عباس مصر فى القرن التاسع عشر "ضعيف" ثم فى العام الثانى جيد. فعلى كل المستويات لا يوجد أى مؤشر على قدرتى على تعلم التاريخ وأدواته، ورغم شغفى الشديد وحبى الشديد للتاريخ، حتى أننى آثرت أن التحق بكلية الآداب تحديداً رغبة فى دراسة التاريخ، رغم أن مجموعى فى الثانوية العامة كان يؤهلنى لبعض الكليات المرموقة.

بدأت العمل فى الماجستير مع عالم جليل لم يأخذ حقه من التقدير وهو الدكتور حسن الحلوة أستاذ الوثائق، وكنت الأوفر حظًا بين زملائى لعملى مع هذا الرجل، فعلى يديه تعلمت أن أطرح أسئلة حول دراسة الوثائق، وأن أتخفف من الأعباء الثقيلة والسخيفة التى تكبل دراسة الوثائق. فهذه مناسبة أيضًا لذكرى هذا الرجل.

فى خريف عام ١٩٩٩م دعانى الصديق عماد أبو غازى لتقديم مشروعى من الماجستير ضمن أعمال سيمنار التاريخ العثمانى بجامعة القاهرة، وكانت تلك هى المرة الأولى التى أسمع عن هذا السيمنار وعن شخوصه، فكانت المرة الأولى التى أقابل فيها رءوف عباس، نللى حنا، عاصم الدسوقى، سيد عشماوى، عبد الحميد سليمان، محمد شومان، محمد حاكم، باسكال غزالة، ناصر إبراهيم، عماد هلال، صبرى العدل، عبد الرازق عيسى، رمضان الخولى، وبالطبع بعض ممن أعرفهم من قبل، مثل عماد أبو غازى، محمد عفيفى وآخرون. بالنسبة لى بعض هذه الأسماء كنت أعرفهم من

خلال أعمالهم. وكانت ورقتى بعنوان القضاء القبطى فى مصر حتى القرن التاسع عشر. فبدأت تقديم ورقتى. وعلى بركة الله بدأت من نصوص الإنجيل، ثم ممارسات الكنيسة الأولى فى العصر الرومانى، ثم دخول الإسلام، وبالطبع لابد من التوقف عند الآيات القرآنية التى تعالج هذا الموضوع أو لها علاقة به، ثم عروجًا على التفاسير المختلفة للقرآن، ثم تقنين المذاهب الفقهية المختلفة لقضاء أهل الذمة. ثم تتبعًا تاريخيًا من بداية دخول الإسلام مصر حتى نهاية القرن التاسع عشر. وحسبت أننى سأبهر الحاضرين بهذه المعرفة الموسوعية وتعدد وتنوع مصادر الدراسة وقدرتى على التعامل مع هذه المجلدات الضخمة ومقارنتها وصولاً إلى رأى ما، وطرح تفسيرى ورأيى الشخصى. وتهيأت لتلقى المديح والتقريظ، فكان التعليق الأول من رءوف عباس الذى "شكليًا" أمتدح عرضى ولكنه لم يكن منبهرًا، كما أن امتداحه كان بشكل عام، وقال أنه يشفق على من هذا المجهود الكبير "فهمت ضمنًا أنه لم يكن ضروريًا لموضوع بحثى أن أتناول كل هذه التفاصيل"، ولم يسألنى مباشرة "يبدو أنه عرف أننى لا أملك إجابة لسؤاله فى الوقت الحالى" فبدلاً من أن يسأل على هذا النحو "لماذا ظهرت وتبلورت المؤسسة القضائية للقبط فى منتصف القرن التاسع عشر تحديداً وكيفية ربط هذه المؤسسة بسياقات أخرى فى خلال فترة محمد على وأسرته. فبدلاً من ذلك قال لى : "حديثك عن المؤسسة مهم ولكن من الممكن أيضًا أن تربطه بالمؤسسات الأخرى التى ظهرت فى نفس الفترة، ويمكن أن يكون

هذا إضافة مهمة لعملك المهم" ثم توالت التعليقات معظمها كانت مشجعة، ولكن لم ينبهر أحد. ثم جاءنى تعليق آخر مهم، كان هذه المرة من جيل آخر، من المرحوم محمد حاكم، فقال لى مباشرة، هل ترى أن نصوصًا كتبت من قرون بعيدة لازالت تهيمن على عمل مؤسسة أو جماعة فى القرن التاسع عشر، حتى فيما يتعلق بالفقه، ألا توجد نصوص فقهية فى القرن التاسع عشر تعالج هذا الموضوع. ثم سألتنى نللى حنا عن كيفية تفسير ظهور بعض الأعيان القبط ضمن الهيئة القضائية القبطية التى مفترض أنها هيئة كنسية بالأساس، وهل يمثل ذلك هيمنة من العلمانيين على الكنيسة فى هذا الوقت؟ وأسئلة أخرى كثيرة من هذا النوع.

كانت هذه المرة الأولى التى أواجه هذه النوعية من الأسئلة. فغالبًا كانت الأسئلة التى تعودت عليها. هذا الاسم نقطة، الصحيح كذا، يمكن إضافة مزيد من التفاصيل حول هذه النقطة. .. الخ، كانت هذه نقطة البداية فى حياتى أن أعرف أن ما تعلمته فى الجامعة لا يُعول عليه وأن على فعلاً أن أتعلم. وكانت مدرسة رءوف عباس هى الملاذ، ومنذ ذلك الحين لم يحدث أنى كنت بالقاهرة وتخلفت مرة واحدة عن جلسات هذه المدرسة. وعندما أقول مدرسة رءوف عباس فأنا أعنى أنه ناظرها ولكن هناك عناصر أخرى مهمة فى هذه المدرسة.

هنا أتحدث عن ظاهرة فريدة لا تتعلق بتخصص التاريخ فقط، فأنا وآخرين غيرى من تخصصات مختلفة انضموا إلى هذه المدرسة

وتعلموا فيها. وإن كنت أتحدث عن تجربتى الشخصية، فالمعنى هو كيفية جذب هذه المدرسة لشخص غير مشتغل بالتاريخ، ليتعلم التاريخ ثم يعود ليطرح أسئلة فى مجال عمله الأساسى وهو الوثائق، وأنا هنا لا أتحدث عن رءوف عباس، بل عن مدرسته.

بالطبع كان الميدان الرئيسى لهذا السيمنار هو العصر العثمانى، وهنا لن أتعرض لهذا السيمنار وتطوره وكيفية خلقه لجيل كامل من شباب الباحثين أنتجوا ولا زالوا ينتجون أعمالاً تتمتع بمستوى عالٍ من الجودة، لم تكن لتتم دون وجود هذه المدرسة. فأعتقد أن بعض المداخلات أوفت هذا الجانب. وإن كانت لى بعض ملاحظات على هذا التيار قد تثير غضب البعض، ولكن من المهم طرحها ومناقشتها، اتفقنا أم أختلفنا عليها. وقد أطرحها فى نهاية مداخلتى.

الخبرة العملية والعلمية :

فى أحد السيمنارات الصيفية بمنزل نللى حنا كنت أتهيأ للمشاركة فى مؤتمر دولى خارج مصر، وبدأت فى طرح فكرتى حول أحد رسامى الأيقونات القبط فى القرن الثامن عشر، محاولاً تفسير هذه الظاهرة، وبعد أن استمع رءوف عباس مع الحاضرين، إلى تصورى عن هذا الموضوع، ومحاولتى لتفسير هذه الظاهرة فى سياق هيمنة الأعيان القبط على أمور الطائفة، وبالتالى بروز هذا النمط من الفنانين من خارج المؤسسة الدينية. سألنى رءوف عباس قائلاً، هل يمثل هذا الفنان تيارًا لفنانين متخصصين امتهنوا هذه المهنة، فقلت نعم، فأضاف قائلاً: أقصد هل رسم الأيقونات أو

المنتجات الدينية الأخرى تحول إلى تجارة. فأجبت أيضًا بنعم. فقال : أنت لديك مفتاح مهم يجب أن تتبعه وتوسع إطاره خارج الطائفة القبطية، وهو ظاهرة التتجير التى شملت قطاعات عديدة حتى أنها شملت منتجات دينية داخل مؤسسة أو طائفة دينية. كان هذا السؤال يعمل فى ذهنى طوال الوقت وأنا أعد دراسة مستفيضة عن هذه الظاهرة خرجت هذا العام فى كتاب باللغة الإنجليزية.

عودة إلى منهج دراسة الوثائق، من المعروف أن دراسة الوثائق تجمدت عند حد الوصف المادى والموضوعى للوثائق، دون أن تتخطاها لطرح أسئلة حول ظروف تكون هذه النصوص وكيفية توظيفها لكتابة التاريخ، وهى الوظيفة الأولى لعلم الوثائق كعلم مساعد للتاريخ. وجئت بهذه الخبرة الوثائقية إلى مدرسة رءوف عباس للتاريخ العثمانى فكنت أتحدث عن أثر مدرسة رءوف عباس فى جيلى.

فى تحليل بيتر جران لمدرسة التاريخ فى جامعة عين شمس: يقول أن رءوف عباس لا يرى أى اتصال بين العصر العثمانى والقرن التاسع عشر، إلا التتابع الزمنى.

Modern trends in Egyptian Historiography: A Review Article peter Gran 1978.

بينما فى عام ٢٠٠٣ وفى مقدمة النسخة العربية لكتاب نللى حنا يقول :

كنا نسمع أساتذتنا الكبار يرددون فى محاضراتهم مقولة أن

مصر وغيرها من البلاد العربية عاشت مرحلة ركود وجمود وتختلف فى كل شئ طوال العصر العثمانى. فإذا غادرنا قاعة المحاضرات، وجدنا ما فى المكتبات من مراجع يردد نفس المقولات استنادًا إلى ما استقر عليه رأى "ثقاة" المستشرقين! ومع الانبهار بنظرية "التحديث" اعتبر العصر العثمانى فى مصر مرحلة "المجتمع التقليدى" ليصبح لما أدخله محمد على من تغييرات فى القرن التاسع عشر تحديثًا. ولا يخفى صاحب هذا القلم أنه كان من بين من روجوا لهذه الفكرة تأثيرًا بنظرية التحديث تارة وبمفهوم "مجتمع ما قبل الرأسمالية" الماركسى تارة أخرى، ثم بفكرة "الاستبداد الشرقى" أحياناً، ومفهوم "المجتمع الخراجى"عند سمير أمين أحيانًا أخرى".

ثم يقول : "جذب أنظارنا النصف الفارغ من الكوب، فلم نر نصفه الآخر، بل لم نكلف أنفسنا عناء النظر إليه. غاب عنا أن نظام الحكم العثمانى نفسه تضمن عناصر إيجابية كانت لصالح بلادنا. وحققت الدولة العثمانية فترة طويلة من الأمن والاستقرار بما فى ذلك تأمين البحر المتوسط "إلى حد كبير" وكذلك البحر الأحمر، كما أصبحت مصر تتعامل مع سوق واسعة تمتد مع حدود الدولة العثمانية فى آسيا وأفريقيا وأوروبا، وأصبحت مصر قلب تلك السوق بحكم موقها الجغرافى ودورها الموصول فى التجارة الدولية المتجهة من جنوب شرق آسيا إلى العالم العربى، وعبره إلى أوروبا"

تبنى رءوف عباس فكرة نللى حنا الواضحة فى معظم أعمالها، وهى تلك الاستمرارية فى التاريخ المصرى وأن مشروع محمد على

قام على أسس سابقة عليه.

هناك كتابات تاريخية ضالة ومضللة نمت فى عقل الأمة حتى استقر الأمر على أنها الحقيقة الناصعة، وتمت صياغة تاريخنا من منظور عثمانى خدم أعداءنا فى المقام الأول، واستخدموه وسيلة من وسائلهم فى تمزيق وحدة الشعوب الإسلامية.

واليوم ينكشف هذا الزيغ ويندحر بفضل جهود باحثين قيضهم الله للدفاع عن تاريخ الإسلام وأرادوا تجلية الحقيقة والانتصار للعلم دون التحيز الأعمى الذى يبتعد بالباحث عن الصواب بإرادته أو رغمًا عنه. ومؤخرًا ظهرت دراسة ثقافة الطبقة الوسطى فى مصر للدكتورة نيللى حنا – أستاذة التاريخ فى جامعة ماسا شوستس –، وبينت فساد هذا الزعم.

هذا النهج كان هو المسيطر، ولا زال، على كتابات جيل الباحثين الشباب.

فارس بورسعيد يترجل من على صهوة جواده للأبد

د. محمد مؤنس عوض(*)

فى هذا المقال أسلط الضوء على مؤرخ مصرى رائد فى مجال التاريخ الحديث والمعاصر له الأثر الذى لا يمحى فى تاريخ الكتابة المصرية والعربية خاصة فى المجالين الاجتماعى والاقتصادى عندما يوجد من يؤرخ لمؤرخى أرض الكنانة والعالم العربى فى القرن العشرين والعقد الأول من القرن الحادى والعشرين.

فقد فقدت أرض النيل الخالدة خلوده ابنًا من أبنائها المؤرخين النادرى التكرار فى صورة الأستاذ الدكتور رءوف عباس حامد الذى كان أشبه شىء بفارس محارب أخلص لما أملاه عليه ضميره الوطنى والعلمى، ورحل فى يوم الخميس الموافق ٢٦ من يونيو ٢٠٠٨ م تاركًا غصة فى قلوب تلاميذه، ومحبيه، وكل من تعامل معه عن قرب.

(*) أستاذ تاريخ العصور الوسطى كلية الآداب – جامعة عين شمس.

ولقد ولد رءوف عباس حامد فى بور سعيد تلك المدينة البطلة التى واجهت العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦م. ولد فى ٢٤ من أغسطس ١٩٣٩ م وانتمى إلى أسرة فقيرة ولم يكن يجد حرجًا فى أن يذكر ذلك فى كتابه "مشيناها خطى"، وقد واصل طريقه العلمى إلى أن حصل على الدكتوراة عن النظام الإجتماعى فى مصر فى ظل الملكيات الزراعية الكبيرة من ١٨٣٧ إلى ١٩١٤ م وقد تتلمذ على يدى مؤرخ رائد فى صورة الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ذلك الرجل الذى أسس سمنار التاريخ الحديث والمعاصر بقسم التاريخ بكلية الآداب – جامعة عين شمس والذى لايزال قائمًا إلى الآن بفضل جهود جاد طه أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بالقسم المذكور.

وقد عمل مؤرخنا القدير بجامعة القاهرة بكلية الآداب بها وتحديداً فى قسم التاريخ وهو قسم رائد، قدم لأرض الكنانة كوكبة فريدة من مؤرخى التاريخ القديم والإسلامى والوسيط والحديث، وفى الفرع الأخير نذكر دورًا رائداً للأستاذ الدكتور محمد أنيس وهو صاحب مدرسة تاريخية مستقلة وقائمة بذاتها فى تلك الجامعة التى أعدها الجامعة الأم لكافة جامعات أرض الكنانة بل والعالم العربى جميعًا وذلك إحقاق حق لا بد من إظهاره.

وقد تدرج فارس بور سعيد بقسم التاريخ المذكور حيث عين مدرسًا فى يونيو ١٩٧١ م وأستاذًا مساعداً فى ديسمبر ١٩٧٧م وصار أستاذًا عام ١٩٨١ م.

ومما يذكر عن ذلك المؤرخ الرائد إجادته للغة الإنجليزية على نحو مكنه من أن يحاضر بها فى مصر، واليابان، والولايات المتحدة الأمريكية، كما أنه اتجه إلى ترجمة عدد من الدراسات التاريخية بالإنجليزية فنقلها إلى لغة الضاد فى أسلوب سلس يجعل القارئ يتصور أن المؤلف ألف كتابه بها وليس بالإنجليزية.

ومؤرخنا المذكور كان من النوع المقاتل الذى لا يكل ولا يمل، بل يواصل العمل ليلاً ونهارًا من أجل إنجاز مشروعه العلمى، وتكاد لا تخلو سنة من أعوام عمره دون أن يصدر فيها عدة بحوث ومؤلفات وكلها تتجه إلى تأصيل زوايا جديدة، ومن الجدير بالإنتباه أن يتجه مؤرخ مصرى رائد إلى إعداد دراسة عن تاريخ اليابان بجدارة وبقيمة علمية تنافس الدراسات اليابانية ذاتها دونما مبالغة وبالتالى طرق مجالاً جديداً لم نسمع عن مؤرخ مصرى أو عربى آخر تطرق إليه.

وابن بور سعيد جعل اهتمامه نحو الفقراء فأرخ للطبقة العاملة. وعنى عناية خاصة بالوثائق وهى المادة الأولية لدراسة التاريخ، ولذا فإن مؤلفاته قائمة فى المقام الأول على الوثائق التى بحث فيها بصبر وجلد لا يتوفر لعشرات الباحثين.

ومما يذكر عنه توليه عدة مناصب إدارية مهمة فقد عمل كرئيس لقسم التاريخ بكلية الآداب – جامعة القاهرة، ووكيلًا لنفس الكلية، وفيما بعد صار رئيسًا للجمعية المصرية للدراسات التاريخية حتى وفاته عام ٢٠٠٨ م ومن بعده تولى قيادة مسيرتها أستاذى أ.د.عادل

غنيم فكان خير خلف لخير سلف بشهادة الجميع.

كما لا يفوتنى الإشارة إلى إشرافه على عشرات من رسائل الماجستير والدكتوراة ورغم كافة تلك المناصب والمهام إلا أنها لم تشغله عن مشروعه العلمى المتدفق وتلك زاوية نقولها ونرددها للجميع لأن المؤلفات من كتب وبحوث هى الباقية، والمناصب وأصحابها مآلهم إلى التراب، وعندما نطالع قائمة مؤلفاته تتملكنا الدهشة من تعددها وتنوعها بصورة يندر تكرارها لدى الكثيرين حتى من أبناء جيله.

* وفيما يلى ألقى الضوء على عدد من تلك المؤلفات وهى كالآتى :

١- الحركة العمالية فى مصر من ١٨٩٩ إلى ١٩٥٢ ط. القاهرة ١٩٦٨ م.

٢- النظام الإجتماعى ط. القاهرة ١٩٧٣ م.

٣- مذكرات محمد فريد دراسة وتحقيق ط. القاهرة ١٩٧٥م.

٤- الحركة العمالية المصرية فى ضوء الوثائق البريطانية ١٩٢٤ - ١٩٣٧ ط. القاهرة ١٩٧٧م.

٥- المجتمع اليابانى فى عصر ميجى ط. القاهرة ١٩٨٠ م.

٦- السياسة الأمريكية والعرب ط. القاهرة ١٩٨٥ م.

٧- جماعة النهضة القومية ط. القاهرة ١٩٨٨ م.

٨- مصر وعالم البحر المتوسط (تحرير الدراسة) ط. القاهرة ١٩٨٦ م.

٩- هنرى كورييل والحركة الشيوعية المصرية ط. القاهرة ١٩٨٨ م.

١٠- جامعة القاهرة ماضيها وحاضرها ط. القاهرة ١٩٨٩م.

١١- العرب فى أفريقيا (تحرير الدراسة) ط. القاهرة ١٩٨٩ م.

١٢- تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى ط. القاهرة ١٩٩١م.

١٣- كبارالملاك والفلاحين فى مصر ط. القاهرة ١٩٩٩ م.

١٤- شخصيات مصرية فى عيون أمريكية ط. القاهرة ٢٠٠١ م.

١٥- ثورة يوليو بعد نصف قرن ط. القاهرة ٢٠٠٣ م.

١٦- مشيناها خطى (سيرة ذاتية) ط. القاهرة ٢٠٠٤ م. (٣ طبعات).

* أما فى مجال الترجمة فقد قدم عدداً من الأعمال العلمية القيمة فى صورة الآتى :

١- م. هاتشيا، يوميات هيروشيما ط. القاهرة ١٩٧٧م.

٢- موريس دوب، دراسات فى تطور الرأسمالية ط. القاهرة ١٩٧٨ م.

٣- الكسندر شولتس، مصر للمصريين ط. القاهرة ١٩٨٣ م.

٤- شارل عيسوى، الهلال الخصيب تاريخ وثائقى ط. بيروت ١٩٨٩ م.

٥- بيتر جران، الجذور الإسلامية للرأسمالية. القاهرة ١٩٩٢ م.

٦- نيللى حنا، تجار القاهرة فى العصر العثمانى ط. القاهرة ١٩٩٧ م.

٧- نيللى حنا، ثقافة الطبقة الوسطى فى مصر فى العصر العثمانى، القاهرة ٢٠٠٤م.

٨- رونالد ستورز، توجهات بريطانية شرقية ط. القاهرة ٢٠٠٥ م.

٩- دونالد ريد، فراعنة من؟ علم الآثار والمتاحف فى مصر ط.

القاهرة ٢٠٠٥ م.

١٠- روجر أوين، اللورد كرومر. القاهرة ٢٠٠٦ م.

١١- بول كنيدى، برلمان الإنسان ط. القاهرة ٢٠٠٨ م (صدر بعد وفاته).

هذا بالإضافة إلى عشرات البحوث والمقالات فى المجلات العلمية المتخصصة وكذلك المجلات الثقافية، ناهيك عن عشرات الأحاديث الإذاعية والتلفزيونية التى عكست شجاعته ورؤيته النقدية للواقع المصرى بصورة يندر وجودها على نحو جعله محط تقدير واحترام ملايين المشاهدين فى مصر والعالم العربى.

وأمام ذلك العطاء العلمى لم يكن غريبًا أن كرمته أمنا جميعًا مصر الخالدة فحصل على جائزة الدولة التقديرية عام ٢٠٠٠ م كما سعى الأستاذ الدكتور عباده كحيله بقسم التاريخ بآداب القاهرة إلى إصدار كتاب تكريمى تذكارى على شرفه شارك فيه عشرات الباحثين من تلاميذه ومريديه وزملائه ومحبيه ويكفى الأستاذ الدكتور رءوف عباس أن الجمعية التاريخية المصرية سعت إلى تأبينه فى عدة جلسات بفضل وفاء الأستاذ الدكتور عادل حسن غنيم نهر العطاء المتدفق.

من زاوية أخرى، قد يوجد من يختلف فى تقييم الأستاذ الدكتور رءوف عباس خاصة من خلال كتابه المثير للجدل «مشيناها خطى»، إلا أننا علينا أن ننسى خلافاتنا وننحيها جانبًا ونتفق على أن مصر فقدت مؤرخًا قديرًا يصعب تكراره، وتلك حقيقة جلية علينا الاعتراف بها اليوم أو غدًا.

أيها القارئ العزيز، إن مقالتى هذه من أجل دق ناقوس الخطر لأن مصر تفتقد عددًا من خيرة أبنائها من جيل المتصوفين فى محراب عشق أرض الكنانة، ومن الصعب بل والعسير أمام التصحر الثقافى العام الذى تعانيه أم الدنيا حاليًا أن يتكرر أولئك الرواد، أمام جيل ظهر على الساحة من شباب الباحثين المتعجلين الوصول إلى القمة الواهمة الواهية الغير موجودة أصلاً من خلال الطعن فى أساتذتهم وتوهم العلمية وهم فى الواقع أنصاف متعلمين يبحثون عن المال والمناصب إلا من رحم ربك من العشاق الحقيقيين لأمهم مصر.

وبالأمس رثيت أستاذ أساتذة العصور الوسطى الأستاذ الدكتور حسن حبشى الذى عانى طويلاً من جحود أحد تلاميذه، ثم رثيت صديقى المؤرخ العالم د. أحمد فؤاد سيد النادر التكرار، والآن أخط بقلمى سطورًا فى رثاء الأستاذ الدكتور رءوف عباس فارس بور سعيد الذى جعل ميدان نزاله من اليابان شرقًا إلى الولايات المتحدة الأمريكية غربًا، وهكذا تحول قلمى - فى جانب من نشاطه - إلى قلم عزاء وحزن دفين لرثاء جيل أفذاذ المؤرخين الذين تساقطوا الواحد تلو الآخر دون أن يوجد من يحل محلهم.

ومع ذلك فإن مصر عملاقة الجغرافيا والتاريخ التى ما عقم رحمها يومًا ستخرج حتمًا مؤرخين صادقين يعشقونها لأنهم رضعوا حليبها، وعلينا ألا نفتقد أبدًا الأمل الأخضر الوثاب فى حسن حبشى آخر وأحمد فؤاد آخر ورءوف عباس آخر.

وهكذا، فبرحيل الأستاذ الدكتور رءوف عباس تزداد قافلة

مؤرخى التاريخ الحديث والمعاصر الذين رحلوا من أبناء مصر فى الأعوام القليلة الأخيرة، أذكر منهم ثلاثة هم : الأستاذ الدكتور عبد العظيم رمضان، الأستاذ الدكتور يونان لبيب رزق، الأستاذ الدكتور جمال زكريا قاسم، والأول والثالث درَّسا لى شخصيًا عام ١٩٧٨ م فأفدت من علمهما الشىء الكثير.

والآن بماذا أختم مقالى ؟ سأقول دونما تردد وداعًا وداعًا يا فارس بور سعيد مدينة الأبطال الذى سقط من على صهوة جواده للأبد بعد أن امتدت ساحة نزاله العلمى من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب مودعًا بدموع مصر واَهاتها وهى بلا ريب على موعد مع ابن جديد ينزل إلى الحلبة ليواصل النزال من جديد وذلك هو قدرها ومصيرها مع رحلة العطاء الخالد.

رءوف عباس والجمعية التاريخية

د. عبد المنعم إبراهيم الجميعى(*)

بدأت علاقة رءوف عباس بالجمعية التاريخية فى عام ١٩٦٦ وذلك بعد حصوله على درجة الماجستير وتركه العمل كمراجع للحسابات بالشركة المالية والصناعية بكفر الزيات، وانتقاله إلى القاهرة، وتفرغه لدراسة الدكتوراة. فبعد أن وجد فيه أستاذه المرحوم أحمد عزت عبد الكريم الذى كان يتولى رئاسة الجمعية وقتذاك المثابرة وحب البحث والرغبة فى المعرفة، كلفه بمهمة لم تكن بالسهلة على باحث فى مثل سنه فى تلك الأيام وهى تقديم خدمة لطلبة الدراسات العليا، بعمل ثبت بعناوين الرسائل الجامعية فى التاريخ والآثار لدرجتى الماجستير والدكتوراة التى أجازتها جامعة القاهرة منذ إنشائها لتقوم الجمعية بطباعته ضمن إعداد مجلتها التاريخية، ورغم صعوبة

(*) الأمين العام للجمعية.

هذه المهمة، خاصة وأنها كانت أول محاولة من نوعها فى هذا المجال، فقد نجح الباحث رءوف عباس باقتدار فى إتمام هذا التكليف والذى تم نشره فى المجلد الثالث عشر من المجلة التاريخية عام ١٩٦٧ مما زاد من اقتناع أستاذه به، وجعله بمثابة العضد واليد اليمنى له فى إتمام المهام الصعبة المتعلقة بالجمعية فاختاره أكثر من مرة أميناً لجلسات اجتماع الجمعية العمومية ليتولى تسجيل ما يدور من مناقشات فى محاضر الجلسات، كما شجعه أستاذه على إلقاء أول محاضرة عامة فى حياته بالموسم الثقافى للجمعية وذلك فى وقت كان الصعود فيه إلى المنصة من المواقف الصعبة أمام الباحثين الشبان فألقى بحثًا بعنوان " استقرار الملكية الفردية فى الأرض الزراعية "نشرته الجمعية عام ١٩٧٤ ضمن كتاب الأرض والفلاح فى مصر عبر العصور.

وظل رءوف عباس يزاول خدماته للجمعية حتى انضم لمجلس إداراتها بعد انتخابات ١٧/١٢/١٩٧٩ وكان بذلك من أول المؤرخين الشبان الذين ينضمون لمجلس الإدارة الذى كانت عضويته حكرًا على كبار الأساتذة حيث فاز بالعضوية بعدد من الأصوات يفوق ما حصل عليه بعض كبار الأساتذة وفى ٢٧/٩/١٩٩٢ اختير رءوف عباس أمينًا لصندوق الجمعية، كما تولى منصب الأمين العام فى عام ١٩٩٣ ومنصب نائب الرئيس فى عام ١٩٩٧ وفى خلال ذلك بذل العديد من الجهود لتطوير الجمعية والعمل على تذليل المصاعب التى كانت تكتنفها.

وفى عام ١٩٩٩ تولى رءوف عباس رئاسة الجمعية فكان ذلك بمثابة ميلاد جديد لها حيث توسعت علاقات الجمعية بالعديد من المؤسسات الثقافية وتوثقت صلاتها بالعاملين فى حقل الدراسات الإنسانية على مختلف أطيافهم سواء فى مصر أو أوربا وأمريكا حيث توافدوا على الجمعية يشاركون فى أعمالها وأنشطتها. ومن خلال ذلك تعرضت الجمعية لعبء ثقيل عرضها إلى توقف أعمالها وإفلاسها، ذلك أن صدر قانون تأجير الأماكن غير المخصصة لأغراض السكنى وتضخم القيمة الإيجابية لمقر الجمعية والذى تضاعف حوالى ثمانية أضعاف مما أدى إلى تعرض الجمعية للطرد من مكانها، خاصة وأن الإعانة التى تقدمها الشئون الاجتماعية لها لم تف بمواجهة هذه الزيادة الطارئة، وزاد الطين بلة أن صاحب العقار الذى كانت تقطنه الجمعية (٢ ناصر الدين المتفرع من شارع البستان بالقاهرة) رفع قضية عليها طالبًا إخلاء المبنى لعدم تمكنها من سداد الإيجار. ونتيجة لذلك طرق رءوف عباس كافة الأبواب طالبًا العون حتى تستطيع الجمعية التى تعد أقدم جمعية من نوعها فى العالم العربى الاستمرار فى أداء رسالتها فى خدمة تاريخ مصر والمنطقة العربية فلجأ إلى وزارة الثقافة طالبًا مساعدتها فى امتلاك مقر خاص بها، ومع أن الأستاذ فاروق حسنى وزير الثقافة تعاطف مع الموقف ووافق على مساعدة الجمعية، فإن المبلغ الذى تحدد صرفه من صندوق التنمية الثقافية وهو عشرة آلاف جنيه لم يكف لإنقاذ الموقف مما دفع رءوف عباس وبعض أعضاء مجلس إدارة

الجمعية إلى اللجوء لبعض رعاة الثقافة فى الوطن العربى طالبين مساعدة الجمعية فى امتلاك مقر خاص بها وقد لقيت دعوتهم استجابة وترحيباً من الشيخ سلطان القاسمى حاكم الشارقة الذى أهدى الجمعية مقرها الحالى بمدينة نصر بموجب عقد هبة تم توقيعه فى حفل افتتاح مقر الجمعية مساء الأربعاء ٢٣ من مايو ٢٠٠١ بحضور بعض الوزراء وكبار رجال الدولة ورموز الحياة الثقافية. وكان ذلك بمثابة انطلاقه مهمة لزيادة أنشطة الجمعية التى اتسع نشاطها اتساعًا ملحوظًا فإلى جانب محاضرات الموسم الثقافى الذى تلقى فيه محاضرتان شهرياً والندوة السنوية فهناك سمنار التاريخ اليونانى الرومانى والتاريخ الإسلامى والوسيط ثم التاريخ المعاصر وهذه السمنارات تتناول قضايا المنهج ويتم التواصل فيها بين علم التاريخ والعلوم الإنسانية الأخرى وقد قامت الجمعية بنشر معظم أعمال هذه السمنارات.

وإلى جانب ذلك فهناك مجلة الجمعية السنوية العريقة والتى أدرجت فى الدليل الدولى للمجلات العلمية أما عن مكتبة الجمعية الزاخر بأمهات الكتب فبعد أن كان عملها يقتصر على الفترة المسائية فقط، أصبحت تعمل من التاسعة صباحًا حتى السابعة مساء كما تم تصنيف وفهرسة مقتنياتها وزودت بحجرة أسست بها مكتبة ألكترونية كما تم إقامة شبكة للحواسب الآلية وإعداد فهرس ألكترونى لمقتنياتها.

وهكذا كان رءوف عباس حريصًا على أن تأخذ الجمعية التاريخية

مكانتها اللائقة بها كمركز علمى ثقافى متميز، ومنارة للعمل العلمى الذى لا يهدف سوى لخدمة تاريخ هذه الأمة، ومعهداً لإعداد الكوادر العلمية، ومع كل الجهود التى بذلها رءوف عباس فقد حاول بعض أعداء النجاح الذين لا ينتجون ويسوؤهم أن ينتج الناس، ولا يفكرون ولا يطيقون أن يروا غيرهم يفكرون، ولا يبغون الخير لهذا الوطن حاولوا الإساءة إلى هذا الرجل العظيم، فوجهوا الشائعات التى تحاول التقليل من جهود رءوف عباس ومع ذلك فقد كان النخيل الذى يسقط أحلى الرطب لمن يقذفه بالحجر، فلم تلن له قناة ولم تهتز ثقته بالآخرين بل ظل معطاءً للخير يساند من يطلب منه يد العون والمساعدة. سألته ذات مرة وبعد أن تكاثفت بعض قوى الشر عليه عند نشره كتاب "مشيناها خطى" ألم تغير موقفك بعد كل ما حدث وتقلل من مساعداتك للآخرين أو أن تنتقى بعض ما يستحق منهم المساعدة بعد أن ندر الوفاء وقل الانتماء، أجابنى أنه فى كل مكان يوجد الغث كما يوجد الثمين، وأن هذه طريقته التى تعود عليها وأنه لا يستطيع أن يغيرها فطالما يستطيع أن يفعل خيراً لأحد لا يتردد فى الأمر، وأن هؤلاء مهما كبروا سيظلون صغاراً وهكذا كانت نفس رءوف عباس غزيرة بالعطاء وروحه نيرة خيرة وقامته طويلة عظيمة لا يخشى فى الحق لومه لائم، يضحى بوقته من أجل الآخرين.

وإلى جانب ذلك فقد كان رءوف عباس عفيف النفس لا يقبل أن يمن عليه أحد حتى فى أصعب المواقف ويكفى أن نذكر أنه عندما داهمه المرض اللعين وبلغ ذلك " الأمير سلطان القاسمى " أمير

الشارقة والذى بنى للجمعية مبناها الحالى عرض عليه أن يتكفل بعلاجه فى أى دولة أوروبية وعلى نفقته الخاصة، ولكن الفقيد اعتذر عن قبول هذا الطلب بعد أن أبت عليه نفسه إلا أن يعالج فى بلده وبالإمكانيات المتاحة داخل بلده التى خدمها حتى آخر أنفاسه.

لقد تمنى رءوف عباس فى كتابه الأخير "مشيناها خطى" أن يموت واقفًا كالأشجار، وألا يسقط القلم من يده، وأن يظل قادرًا على التفكير والإبداع حتى يجود بالنفس الأخير، وقد حقق الله له أمانيه، فظل حتى آخر لحظة من حياته ويعطى المثل فى العطاء رغم المرض اللعين وآلامه الذى لم يحن هامته له أو يشكو منه أو يتذمر، بل حمل على أكتافه كل ما يتبقى أمامه من مهام قام بإنجازها حتى لا تتعطل أمور أحد، وألا تتأخر أعمال كان قد وعد بها، فأصر على أن ينتهى من تحرير كتاب ٩ مارس عن استقلال الجامعة وظل يقضى الساعات الطويلة متحملاً آلام المرض لينهى تحرير هذا الكتاب قبل عقد المؤتمر السنوى للمجموعة فى ٩ من مارس ٢٠٠٨ والذى رسم صورة واضحة للجامعة كبؤرة للمشروع الوطنى النهوضى والنضال الوطنى، والكفاح من أجل استقلال الجامعات وإطلاق طاقات الحرية الأكاديمية من عقالها.

كما ظل رءوف عباس رغم المرض اللعين يتابع مسيرة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية وأنشطتها والتى تعد ربيبته، وكانت شغله الشاغل قبل وفاته، موصيًا أعضاء مجلس الإدارة بالمحافظة عليها والسير على الدرب الذى رسمه لها.

وإلى جانب ذلك فقد أوصى رءوف عباس بمتابعة أعمال طلابه الذين أنهوا رسالتهم العلمية أو كادوا حتى لا تتعثر أمورهم من بعده، وظل عطاؤه لطلابه لا ينقطع حتى آخر نفس فى حياته.

إن ما تركه رءوف عباس من تراث فكرى، وعطاء إنسانى هو رصيد هائل نعتز به، وسيبقى مثالاً مشرقًا للأجيال الشابة التى تكافح من أجل تحقيق آمالها وتكوين أفكارها وإذا كان قد رحل عن دنيانا، فإن أعماله ستظل صورة حية، ونموذجًا صادقًا لرجل حرص دائماً على أن تكون حياته ثمرة للعمل والمثابرة والجدية والصدق والأمانة، والخلق الرفيع، والتواضع المستند على إحساس عميق بالكرامة والكبرياء، والعشق الشديد لمصر وتاريخها لقد خسرت مصر والمدرسة التاريخية رمزاً من رموزها الكبار، والرموز تذكر على الدوام وأبد الدهر، فرغم مرور فترة على وفاة الدكتور رءوف عباس فالعيون لم تجف دمعها بعد حزنًا على فراق الفقيد، ومثل هذه المدامع لا تتكرر كثيراً إلا حين تكون الخسارة فادحة والخطب كبير. فوداعًا رءوف عباس مؤرخ البسطاء الذى فقدته المدرسة التاريخية، وخسارتنا كبيرة بفقده.

منهج رءوف عباس
فى كتابة التاريخ المعاصر

د. جمـال حجـر(*)

كان رءوف عباس علمًا من أعلام المؤرخين المصريين فى التاريخ الحديث والمعاصر، كنا نتفاخر نحن أبناء مدرسة الإسكندرية بأننا التقيناه وتناقشنا معه واستلهمنا أفكاره وشاركنا فى سمنار الأربعاء الذى كان يقيمه فى جامعة القاهرة. وحين شاءت الأقدار أن أُبتعث إلى إنجلترا لحساب مكتبة دار العلوم جامعة القاهرة، وعدت فى مطلع الثمانينيات ليتلقفنى ويعرض على بكرم شديد أن أنتقل إلى كلية الآداب بالقاهرة لأنه يسعى لتدعيم القسم بعناصر شابة تعلمت تعليمًا جيدًا، وحين وجدنى مترددًا قال الدرجة ستنتظرك حتى نهاية العام إلى أن تتخذ قرارك. هكذا كانت علاقتى بالمرحوم الدكتور رءوف عباس، علاقة تقوم على تقدير متبادل، ترك فى نفسى أثرًا

(*) استاذ التاريخ الحديث كلية الآداب جامعة الإسكندرية.

حميداً. وظل التواصل بيننا قائمًا، وتشرفت بالجلوس إلى جانبه على منصته مناقشة إحدى الرسائل، وكانت آخر مناسبة التقيت به فيها حين زرت الجمعية قبل سفره الأخير للعلاج. يرحمه الله.

كان رءوف عباس منفتحًا على المدارس الفكرية فى مجال التاريخ يسافر ويتابع ويشارك وينقل أفكاره مباشرة أو عبر الندوات والمؤتمرات أو المقالات والكتب، يمارس المناهج العلمية ويلاحق تطوراتها بما ينسجم مع تطور علم التاريخ نفسه، وهذا فى حد ذاته منهج علمى.

ونراه فى مقاله عن التاريخ المعاصر باستخدام المصادر والمناهج الحديثة الذى أهداه إلى الدكتور عادل غنيم فى مناسبة تكريمه، يحفز الباحثين نحو الأخذ بتلك المناهج.

وفى هذا المقال تحديداً نرى رءوف عباس يرصد وعى المدارس التاريخية المصرية بأهمية التاريخ المعاصر فى النصف الثانى من القرن العشرين، متأخراً ثلاثة عقود عن إدراك الغرب لهذا الفرع الجديد من فروع التاريخ، الذى كان يتابع المتغيرات المتلاحقة التى وقعت فى العالم بعد الحرب العالمية الثانية، لعل أهمها انقسام العالم إلى معسكرين وظهور كتلة عدم الانحياز. وصار من الصعب على المؤرخ أن يتجاهل ما يدور حتى يطويه الماضى البعيد، بعدما أصبح الماضى أقرب إلى الحاضر مما كان من قبل وصار فى إمكان الباحثين إخضاعه للدراسات التاريخية فى ضوء المتاح من المصادر، التى لم تعد تعتمد على وثائق باعتبارها مصدراً رئيسيًا أو وحيداً فى كثير من الأحيان.

إذا بدأت المدرسة الألمانية التى تبنت اتجاه الاعتماد على الوثائق تتآكل، ولم تعد الوظيفة وحدها مصدر المادة التاريخية، وأصبح الباحث قادراً على الاستدلال التاريخى بالاعتماد على مصادر أخرى. ويعتبر هذا التوجيه نحو تنويع المصادر التاريخية إعلانًا بميلاد فرع التاريخ المعاصر فى الغرب فى العشرينيات من القرن الماضى. استطاع رءوف عباس أن يرصد هذه التوجيهات الجديدة، وأن يضعها خلفية لتصوراته المنهجية، ليرصد معها ما رافقها من تطور فى المنهج، لا يؤكد على أن تطور علم التاريخ لا يتم بعيداً عن منهجه، وليؤكد على أن نصف العلم تنظيمه فى إطار منهجى، وأن العلم والمعرفة كائنات حية تتطور بتطور مناهجها. لقد أصبح التاريخ المعاصر فى نظره ميدانًا شرعيًا للدراسة التاريخية فى مصر فى النصف الثانى من القرن العشرين، ومع ذلك فقليل أولئك الذين ألموا بأصول الكتابة فيه، وكان التخلص من سيطرة الوثيقة على الكتابة التاريخية عبئًا تم تجاوزه مع الوقت والاستعاضة عنه بالمصادر السمعية والبصرية التى أفرزها التطور العلمى المذهل فى مجال الأعلام والمعلوماتية، وبها ومعها أصبح المؤرخ ليس فقط راصداً للحدث بل أيضًا طرفًا فيه، ويشاركه فى ذلك العامة من المثقفين، حتى وإن كانوا لا يملكون مناهجه. ولذلك حرص رءوف عباس على أن يلفت انتباه الباحثين إلى تلك المصادر الجديدة التى اهتم بها الغرب ولم يهتم بها المصريون أو العرب بالقدر الذى تستحق، وبالمناهج المناسبة للتعامل مع تلك المصادر السمعية والبصرية،

محذراً من أنها يمكن أن تكون عرضة للتزييف، ولكن هذا لا يجب أن يحول بيننا وبين توظيفها، فالمؤرخ يستطيع عن طريق أدواته البحثية أن يحلل مضمونها. فإذا فعل ذلك فإنه يستطيع من خلال المشاهدة أن يرى ما للوثيقة، الصحافة أيضاً مصدر قيم طالما كانت تتمتع بحرية التعبير بعيداً عن الرقابة الخانقة، خاصة وأن الصحافة أصبحت تتمتع بالقدرة على طرح موضوعات عميقة ومتنوعة لأنها صارت تملك القدرة على النفاذ إلى القضايا فى العمق وبخاصة القضايا الاجتماعية التى يعز تناولها فى الوثائق. فالتاريخ المعاصر فى الواقع دراسة للمجتمع باعتبار مسرحاً للأحداث ولذلك يتداخل التاريخ المعاصر هنا مع ميدان البحث فى علم الاجتماع الذى تفيد مناهجه كثيراً فى مساعدة المؤرخ على أداء مهمته. والقول نفسه ينسحب على علم الاقتصاد عند دراسة التاريخ، والقول نفسه ينسحب على علم السياسة الذى يفيد ومناهجه فى دراسة التاريخ السياسى المعاصر. هذه العلوم الثلاثة بمصادرها ومناهجها أصبحت من الضروريات اللازمة للتاريخ المعاصر. ويلفت رءوف عباس اهتمام الباحثين إلى التاريخ الشفوى، أو الروايات الحية التى يرويها من شاركوا فى الأحداث أو من شاهدوها ومن خلال مقابلة هؤلاء يمكن الوقوف على الكثير من المعارف التى تقدم المادة المعرفية وتساعد على فهم وتحليل المصادر المكتوبة. الأعمال الأدبية هى الأخرى تساعد كثيراً فى التعبير عما لا يمكن التعبير عنه بالوسائل الأخرى، وتنفذ إلى عمق النفس البشرية حين ترسم صوراً حية

لاتجاهات الناس وأساليب معيشتهم ومعتقداتهم وقيمهم الاجتماعية (خذ أعمال نجيب محفوظ نموذجاً) وفى هذه الحالة لابد على الباحث فى التاريخ المعاصر أن يكون على وعى بمناهج النقد الأدبى، المذكرات والذكريات التى يكتبها الساسة وصناع القرار مع الحذر الشديد الذى يتطلب الإلمام بالخلفيات التاريخية لكتابها، ومناهج التحليل السياسى التى تعين على فهم مواقف أصحابها.

ويأبى رءوف عباس أن ينأى بعلم التاريخ عن مختلف فروع المعرفة الإنسانية فهو يعتمد عليها ويستمد وجوده واستمراره منها، ويوظف مناهجها، ويستمد منها نظريات جديدة وتقنيات جديدة تدفع البحث فى التاريخ المعاصر قدماً إلى الأمام. وهنا يؤكد رءوف عباس على العلاقة بين التاريخ وعلم الاجتماع منذ الأربعينيات من القرن الماضى، وبقدر ما استفاد علم الاجتماع من التاريخ فى مصادره استفاد التاريخ من علم الاجتماع فى مناهجه. ففى النصف الثانى من القرن العشرين ظهرت قضايا بحثية جديدة كالسلوك الجماهيرى، والتكيف الاجتماعى والثقافى، والحراك الاجتماعى، والثقافة السياسية، وغيرها من المسائل التى عنى بها علماء الاجتماع، وأفادت كثيراً الباحثين فى التاريخ المعاصر الذى شهدت تلك الفترة نشأته، فالباحث الاجتماعى يستطيع أن يقدم للباحث فى التاريخ رؤية نظرية مدركة لحركة الواقع الاجتماعى ولقوانينه الأساسية، وعلاقاته وتشابكاته العديدة، والكيفية التى تقسم بها الصيرورة الاجتماعية. ويؤكد رءوف عباس على حاجة الباحث فى

الاجتماع إلى الوعى بالتاريخ ويعتبر ذلك من الضروريات اللازمة له، ولو توصل الطرفان إلى صيغة للتعاون العلمى لحصلنا على دراسات من نوع جديد للواقع الاجتماعى المعاصر، لأن السلوك البشرى لا يمكن فهمه إلا بالنظر إليه فى صورته الاجتماعية الكاملة.

والمؤرخ فى حاجة أيضًا إلى مناهج علم النفس الاجتماعى عند تفسيره للظواهر التاريخية، وتفسير سلوك الأشخاص والقيادات، وهذه المناهج تؤدى إلى توسيع آفاق التفسيرات التاريخية، والتكامل بينها مطلوب بشدة. والشئ نفسه مطلوب عند الاستعانة بمناهج التاريخ الاقتصادى الذى تميز بتقديم إسهامة جادة لدراسة التاريخ، والباحث فيه يحتاج إلى أدوات البحث الاقتصادى كالتحليل الإحصائى أو الكمى، متفرقة النظرية الاقتصادية وإتقان استخدام أدوات البحث الاقتصادية توسع أفق المؤرخ المعاصر وتفتح أمامه أبوابًا كانت موصدة.

ويلفت رءوف عباس الانتباه إلى علوم الحاسب وإمكانية توظيفها فى الكتابة التاريخية المعاصرة، وخاصة فى مجال التصنيف والترتيب والفهرسة، ولكنه لا يفيد فى مجال التحليل، فالتاريخ صناعة إنسانية ودراسته أيضًا صناعة إنسانية. ولذلك تقتصر فائدة الحاسوب على تخزين واسترجاع المادة العلمية، والقيام الحسابى الذى يكون عادة أكثر دقة من التحليل البشرى. ومهما يكن من قول حول دور الحاسب الآلى فى الدراسات التاريخية، فإن المؤرخ يبقى صاحب القول الفصل، لأنه الوحيد الذى يملك العمل الإبداعى، فهو

الوحيد الذى يقدر قيمة المعلومات المعدة آليًا.

ويخلص رءوف عباس على القول بأن الوقت قد حان للاهتمام الجاد ودراسة التاريخ المعاصر باستخدام المصادر الجديدة التى فرضتها ظروف العصر وثورة المعلومات والاتصالات والانفتاح على العلوم الاجتماعية ومناهجها، والتقنيات الحديثة، ولكى نحقق ذلك بأسلوب جيد يجب إعداد الباحث فى التاريخ المعاصر إعدادًا يتوافق مع التطور الحديث لعلم التاريخ ومناهج البحث فيه. ويترتب على ذلك إعادة النظر فى برامج الدراسات العليا، والعمل الجماعى.

رءوف عباس
ودروه فى تطورمدرسة التاريخ العثمانى فى مصر

د. حسام محمد المعطى(*)

قلة قليلة من الرجال والمؤرخين الذين ينتحون عن آراءهم ووجهات نظرهم التى طالمًا دافعوا بعدما تنكشف حقائق جديدة أمامهم، فتلك شيم العلماء الذين يعرفون للحقيقة قدرها، وأحد أهم هؤلاء المؤرخين هو رءوف عباس حامد، ففى كتاباته الأولى هاجم رءوف عباس فترة الحكم العثمانى معتبراً إياها مرحلة من التخلف والجمود والركود وأن مصر كانت جسداً بلا روح، وأن الحملة الفرنسية هى التى صدمت هذا الجسد فبعثت فيه الروح فأخذ يفيق على أصوات مدافع بونابرت وصحفه، غير أن محمد على هو الذى أخذ يبعث الدماء فى شرايين هذا الجسد لينهض من جديد من كبوت سنوات عاش فيها من الثبات والتخلف.

(*) مدرس بكلية الآداب – جامعة بنى سويف.

وترجع وجهة النظر إلى كونها هذه إلى أولاً : قلة الدراسات التى تمت حول هذه الفترة إبان هذه المرحلة، والثانى: لأن رءوف عباس ركز فى البداية كل مشروعه البحثى على دراسة القرن التاسع عشر، وقدم العديد من الدراسات حوله كما دفع بالعديد من تلاميذه الأوائل إلى دراسته، غير أن هذه الدراسات أخذت تطرح فى ذهنه مجموعة من التساؤلات، بخاصة منذ بداية تسعينيات القرن المنصرم، وهل تمت التحولات التى نشأت على يد محمد على من فراغ؟، خاصة وأنه لم يعتمد على رأس المال الأجنبى فى إقامة البنية الأساسية لاقتصاد السوق الخاضع لإدارة الدولة، وإنما اعتمد على موارد مصر وحدها طوال حكمه، وحقق التراكم الأولى اللازم لإقامة تلك البنية من خلال إعادة تنظيم الاقتصاد المصرى وتوجيه بعض قطاعاته وجهات جديدة، فمن أين استطاع الاقتصاد المصرى فى مطلع القرن التاسع عشر أن يوفر كل تلك الموارد إذا كان الاقتصاد تقليديًا راكدًا؟.

وكيف استطاع المجتمع المصرى أن يتجاوب مع إصلاحات محمد على إذا كان مجتمعاً يعانى الاضمحلال والتخلف؟. بل كيف استطاع العامل المصرى أن يستوعب الأساليب الفنية الحديثة فى مصانع محمد على إذا كان عطلاً من الخبرة مفتقرًا إلى الاستعداد؟! وكيف استطاع الفتية المصريون الذين تعلموا فى ظل نظام التعليم التقليدى فى العصر العثمانى أن يتجاوبوا مع التعليم الحديث، بل ويتابعوا الدراسة فى المعاهد الفرنسية إذا كان النظام التعليمى الأساسى الذى أخرجهم متخلفًا عاجزًا، كل هذه تساؤلات أخذت

تراود رءوف عباس وأخذ يطرحها على جيل جديد من الباحثين لكشف غموض هذه الفترة التاريخية التى سبقت حكم محمد على، وقد دفعته رغبته فى كشف الستار عن هذه الفترة التاريخية إلى وضع خطة لتفعيل الدراسات العثمانية، وقد خطط لذلك عبر محاور أساسية أخذت تتطور مع مرور الوقت وهى، **أولاً** : تبنى جيل جديد من الباحثين ليعملوا فى تاريخ مصر العثمانية داخل قسم التاريخ بجامعة القاهرة، **ثانيًا**: ترجمة أهم الدراسات الحديثة التى تمت حول هذه الفترة، **ثالثًا** : تبنى ستار ثابت لإثارة حالة من الحوار والجدل حول هذه الفترة حتى يمكن كشف تاريخ هذه الفترة، **رابعًا** : عقد عدد من المؤتمرات والندوات حول تاريخ مصر فى العصر العثمانى وطبع هذه الندوات لكشف مزيد من الحقائق حول هذه الحقبة.

ففى إطار تبنى جيل جديد من الباحثين داخل جامعة القاهرة، دفع رءوف عباس بتلميذه الأول محمد عفيفى إلى دراسة هذه الفترة وتخير واحداً من أهم الموضوعات التى لا تزال تحظى باهتمام كبير فى الأوساط البحثية وهو "الأوقاف فى مصر العثمانية» ثم حثه على أن يمضى قدمًا لينجز موضوعه للدكتوراة حول "الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى"، ويتم اختيار الموضوعين عن عمق رؤية رءوف عباس، ولم يكن ذلك فقط هو ما فعله رءوف عباس فقد دفع بتلميذه الثانى ناصر أحمد إبراهيم إلى دراسة القرن التاسع عشر – أقل الفترة العثمانية حظاً من الدراسة – فأنجز رسالته للماجستير عن موضوع «الأزمات الاجتماعية فى مصر فى القرن السابع عشر»،

ولأنه كان يريد أن يكشف عن الأثر الحقيقى للحملة فى فكرة الحداثة، والأثر الذى تركته فى المجتمع والواقع المصرى، لذلك فقد حث ناصر على دراسة النظام المالى للحملة الفرنسية فى صعيد مصر، كما دفع اهتمام رءوف عباس بالعصر العثمانى العديد من المحيطين به داخل جامعة القاهرة بما أثاره من قضايا أن يغيروا توجيهاتهم فى البحث فقد غير سيد عشماوى وهو الذى تخصص دومًا فى الدراسة عن القرن العشرين من توجيه ليقدم العديد من الدراسات عن العصر العثمانى.

وفى ميدان الترجمة حرص رءوف عباس على انتقاء العديد من الدراسات الجادة التى اعتمدت فى تكوينها على المصادر الأولية والأرشيفية، وعلى المنهج العلمى الجاد والحديث، فراجع وأشرف فى البداية على ترجمة كتاب بيتر جيران " جذور الرأسمالية الإسلامية فى مصر " وكانت البداية التى أعقبها بترجمة كتاب المؤرخة المرموقة نيللى حنا " تجار القاهرة فى العصر العثمانى " وثقافة الطبقة الوسطى فى مصر فى العصر العثمانى " ثم أعقب ذلك بإشرافه على ترجمة العمل الأضخم للمؤرخ الشهير أندريه ريمون " حرفيو وتجار القاهرة فى العصر العثمانى " كل هذا المجهود شكل أحد أهم الإضافات لتطوير الدراسات العثمانية فى مصر، فقد كنا فى مصر نمتلك المجهود العلمى للعمل على الوثائق المتاحة لكننا كنا نفتقد المنهج العلمى الواضح، وقد أتاحت هذه الترجمات إضافة للمقدمات العلمية الأصيلة التى أعدها، والتى تعد دراسات منفصلة، أقول

أتاحت تطوراً مهمًا للمنهج العلمى فى مدرسة التاريخ العثمانى، وأحسب أن مراجعة الدراسات التى تمت فى مصر أعقاب صدور هذه الترجمات خير دليل على ما لحق بالدراسات المصرية فى العصر العثمانى من تطور.

غير أن التطور الأكبر كان سمنار التاريخ العثمانى، يقول رءوف عباس عن بداية هذا السمنار.. أنه فى العام ١٩٩٤ جاء نفر من أولئك الشباب من طلاب الدراسات العليا بمختلف الجامعات المصرية ليطلبوا منه أن يساعدهم على تنظيم سمنار خاص بالعصر العثمانى، يطرحون فيه أفكارهم ويتبادلون الخبرات مع بعضهم، فوافق على تبنى هؤلاء الشباب بقسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة، وبسبب جديته وإشرافه المحكم سرعان ما جذب السمنار عدد من كبار الأساتذة أمثال نيللى حنا وعاصم الدسوقى وعلى السيد وعبادة كحيلة، كما أصبح السمنار تدريجيًا قبلة للباحثين الأجانب الوافدين إلى مصر من أجل الأبحاث أو الدراسات العليا، وفى خلال العامين الأولين من عمر السمنار (٩٤ – ٩٥) كانت موضوعات السمنار مختلفة، ثم تطور الأمر وأصبح السمنار يختار موضوعًا منفصلاً لكل عام لدراسة أحد الجوانب فى العصر العثمانى، وحرصًا على أن يتخذ السمنار الطابع المؤسسى وضمانًا لاستمرار نشاطه، اقترح أعضاء السمنار نقله إلى مقر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية باعتبارها بيت جميع المؤرخين منذ عام ٢٠٠٠، واستمر حتى الآن ليصل عمره إلى خمسة عشر عامًا.

هكذا أصبح سمنار التاريخ العثمانى تحت رعاية رءوف عباس نموذجًا فريدًا فى المجال الأكاديمى العربى لما حققه جيل الباحثين الشباب الجدد من نجاح فى تنظيم النشاط العلمى وإدارته، وهنا أخذ شكل السمنار فى التغير فبعد أن ظل دومًا لسنوات "حلقة نقاشية" فقد تحول لأول مرة منذ عام ٢٠٠٢ إلى تدوين وتسجيل إنتاجه فى كل عام، فكان الإصدار الأول عن "العدالة بين الشريعة والواقع فى مصر العثمانية"، ثم كان الإصدار الثانى عن "الطوائف المهنية والاجتماعية فى مصر العثمانية" بينما جاء الإصدار الثالث يحمل عنوان "الرفض والاحتجاج فى المجتمع فى العصر العثمانى"، بيد أن الإصدار الرابع عالج موضوع "الفرد والمجتمع فى مصر العثمانى"، وأخيرًا وقبل أيام قليلة صدر الإصدار الخامس والأخير تحت عنوان "ثقافة النخبة وثقافة العامة فى مصر العثمانية" حرر رءوف عباس مقدمات لكل هذه الأعمال وحرص على مراجعتها وتنقيحها حتى يوجه هؤلاء الشباب الوجهة الصحيحة، فقد كان البوصلة التى اعتدنا على السير على وجهتها، كان يحرص على إرشاد كل منا على حدة حتى لا يحرجه أمام الآخرين، فكان بذلك يعرف قيمة الأستاذية.

هكذا حملت هذه الإصدارات وأبحاث وأفكار جيل جديد من الباحثين الذين حرص على رعايتهم منذ أن كانوا ثمرة صغيرة، وجنى رءوف عباس حب واحترام الجميع، كما لعب رءوف عباس الدور الأول فى إصدار حولية الوثائق المصرية المعروفة " بالروزنامة "

بهدف نشر الأبحاث التى تعتمد على الأرشيف بشكل رئيسى، وبالطبع فقد دفع تلاميذه من أبناء السمنار العثمانى للإنتاج والنشر بالحولية الجديدة، وأى مراجعة بسيطة لإصدارات الحولية سوف توضح تصدر أعضاء السمنار العثمانى لمقالاتها.

لم تكن هذه الإصدارات هى الثمرة الوحيدة للسمنار العثمانى فقد قدم السمنار ثلاثة أجيال من الباحثين الشباب لمعترك العمل العلمى فى التاريخ، فقد رحب رءوف عباس السمنار بكل الوافدين من مختلف الجامعات وفتح الباب أمام الجميع للمشاركة، حتى تلاميذ من كان يصفهم البعض بأعدائه، رحب بهم ولم يلتفت إلى كلام الآخرين، وحرص على أن يرشد الجيل الأول من أبناء السمنار لضرورة الأخذ بيد جيل جديد من الباحثين، ووجد فيه الجميع كلما وجدته أبًا ومشرفًا جديداً تجلس إليه لتحاوره ويرشدك بلا أى رغبة فى شئ سوى الصحيح، ويبدو لنا جميعًا أن الرجل كان راضيًا عما أنجزه من خلال السمنار العثمانى، لكنه كان يخشى شيئًا وحيداً هو أن ينهار ما حاول دومًا بناءه، ولكننا من هنا نعاهده أننا تلامذته وأبناؤه سوف نعمل دومًا على السير على نهجه وأن يظل السمنار العثمانى يقدم المزيد من الدراسات والإنتاج العلمى الرصين الذين حرص عليه، وأن يقدم أجيال جديدة دوماً أحرص على صيانة أمانة تاريخ هذا الوطن.

كما أدرك رءوف عباس أهمية عقد الندوات والمؤتمرات الدولية لخلق حالة من الحوار بين الباحثين المصريين والأجانب، كخطوة أولى

فى سبيل إقامة نوع من التنسيق بين الباحثين المصريين وزملائهم الأجانب، فنجح فى عقد ندوة فى الفترة من ١ – ٣ سبتمبر ١٩٩٢ بقسم التاريخ بجامعة القاهرة حول "تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى" ثم واصل جهوده ليخرج أعمال وأوراق هذه الندوة فى عدد خاص من مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة العدد ٥٧، يقول رءوف عباس فى مقدمة هذه الندوة أن الهدف الرئيسى منها " سعيًا وراء تكوين مدرسة مصرية للتاريخ العثمانى "، وكان المؤتمر الثانى فى ٢/٤ أبريل ٢٠٠٥ حيث جاء تكريمًا للعالم الكبير أندريه ريمون الذى أسهم بصورة كبيرة فى كشف غموض العديد من الحقائق حول مصر العثمانية، ومن خلال هذا المؤتمر الذى حمل عنوان " المجتمع المصرى فى العصرين المملوكى والعثمانى " حث طلاب السمنار العثمانى على المشاركة فى أوراق وأبحاث المؤتمر لهدفين، **الأول** : كشف الجيل الجديد من الباحثين الذين تخصصوا فى الدراسات العثمانية وتقديمهم فى المحافل العلمية الدولية الكبيرة وكشف قدرتهم على تقديم الجديد، **والثانى** : تكريمًا لرجل كتب تاريخًا لوطنٍ أعتقد الجميع أنه ضربًا من التخلف، بيد أن المؤتمر الثالث كان قبل وفاته بقليل، ففى الفترة بين ٢٦–٣٠ نوفمبر ٢٠٠٧ دعى لمؤتمر بين مصر وتركيا، وقد حمل المؤتمر عنوان " مصر فى العصر العثمانى " وترأس هو الجانب المصرى بينما ترأس أكمل الدين أحسان أو غلو الجانب التركى، ومن يراجع أوراق المؤتمر من المشاركين عن الجانب المصرى سوف يدرك

على الفور أثر رءوف عباس فى رعاية جيل جديد من الشباب المصريين ليحملوا اسم مصر، فقد برز شباب السمنار العثمانى بأوراقهم ومناقشتهم بشكل يليق باسم مصر، وبدأ كأن شيئًا جديداً قد تغير بالفعل فى وقع الدراسات العثمانية فى مصر، فقد دفع رءوف عباس بأسماء خمسة عشر شابًا مصريًا من تلاميذ السمنار العثمانى ليمثلوا الجانب المصرى، تعلموا وتمرسوا على يديه فى السمنار العثمانى، هكذا كانت أستاذية رءوف عباس.

رحم الله رجلاً طالما حث من حوله على العمل من أجل الوطن، فلم تكن كلمته الأخيرة فى كل مقالاته إلا تجسيداً لفكرة آمن بها وهى " الله والوطن العزيز من وراء القصد "

رحم الله رءوف عباس أستاذًا ومفكرًا وعالمًا وأبًا.

نقد الاستشراق فى فكر رءوف عباس

د. ناصر إبراهيم(*)

خلف الدكتور رءوف عباس تركة علمية كبيرة وثرية، وبرغم أنى كنت واحداً من بين المهتمين والمتابعين لإنتاجه العلمى والفكرى، إلا أنه يبدو لى أن رحيله قد ساعد أكثر فأكثر على استدعائه ككل، انتاجًا وفكرًا بكل قيمته العلمية الكبيرة : فالانكباب على أعماله ودراساته المتعددة، جعلنا نكتشف أن وراءها مشروع فكرى كبير، ارتكز، فى واقع ا?مر، على مجالين فى الكتابة التاريخية : مجال عنى فيه أكثر ما عنى برصد مسارات تطور المجتمع المصرى الحديث والمعاصر، وآلية التحول والتغيير الاجتماعى من مرحلة إلى أخرى، وما كان يصحب ذلك من انعكاسات على تغير البنية الاقتصادية والسياسية فى المجتمع. على أنه يبدو أكثر اهتماماً بتحليل عناصر

(*) كلية الآداب – جامعة القاهرة .

القوة المحركة للتطور، بصرف النظر عن كون هذه العناصر نتاجاً لعوامل داخلية كامنة فى المجتمع، أو لعوامل خارجية تستثير وتحفز ما هو فى الداخل، فتدفع المجتمع إلى الإنتقال من مرحلة إلى أخرى.

أما المجال الثانى فقد تمثل فى عنايته " بأزمة المنهج والكتابة التاريخية " فى مصر والعالم العربى، وكتب فى ذلك خمس مقالات مهمة، حاول فيها تشخيص الداء وتقديم اقتراحات عديدة لعبور هذه الأزمة والنهوض بالكتابة التاريخية فى مصر والعالم العربى.

واتصور أن هذين المجالين أو فلنقل بالأحرى الشاغلين الأساسيين فى فكر رءوف عباس يمثلان مدخلاً مهمًا لفهم الأسباب التى جعلته معنيًا بمراجعة المقولات والأفكار والنظريات التى انتجتها "مدرسة الاستشراق". ولعل أهم تلك الأسباب هو ما تمثل فى إيمانه بأن كل ظاهرة تاريخية لا تظهر صدفة أو فجأة، ولكن لابد أن يكون وراءها " تراث" طويل معقد ومركب يؤدى إلى بروزها فوق السطح فى لحظات نضوجها واكتمال دورتها من النمو والتَشكُّل، ومن ثم يتعين على المؤرخ ـ فى رأيه ـ أن يعتمد فى دراسة الظاهرة على واقع المادة الوثائقية وغيرها من المصادر الأولية، وليس على الأفكار النظرية المسبقة، وأن يولى اهتمامه بإعادة تركيب الظاهرة، والبحث فى عوامل الحركة فيها، ثم تفسير تطور المجتمع المصرى فى إطارها، دون التقيد المسبق بقالب نظرى معين. على أن ذلك لايعنى ـ عنده ـ أن نطرح الأطر النظرية جانبًا، وإنما نفيد منها فى تحليل المادة التاريخية.

ولما كان الفكر الاستشراقى يقوم فى الأساس على ما هو معروف بـ "المنهج الانتقائى" فى اختيار المادة التاريخية التى تخدم أفكاراً مسبقة تم بلورتها خارج السياق التاريخى للوقائع والأحداث، والتجاوز عما يتعارض مع تلك الأفكار، فقد كان لابد أن يجد رءوف عباس نفسه (وأمثاله من المؤرخين الاجتماعيين) فى الاتجاه المناقض تمامًا للفكر الاستشراقى : فهو عند دراسته للظاهرة التاريخية يؤكد على ضرورة التحرر من النزعة الذاتية الضيقة، وأن يعالج المؤرخ الظاهرة فى إطار السياق التاريخى الذى برزت من خلاله، ليغوص فى عمق واقع الظاهرة المدروسة، محللاً ما نجم عنها من آثار مختلفة على المستوى الاقتصادى / الاجتماعى، كما يتعين عليه أن يأخذ فى الاعتبار تجلياتها الأخرى المباشرة وغير المباشرة على تشكيل البنية السياسية والثقافية للمجتمع، وهذا تحديداً ما يعرف عند رءوف عباس " بالمنظور التاريخى (الواقعى) فى فهم التاريخ ".

على حين ينطلق أرباب الفكر الاستشراقى من أطر نظرية مُفَصلة ؛ لجعل الشرق بالضرورة " الصورة المضادة " للغرب فى كل مناحى الحياة الفكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ومن ثم فالنتائج / الأهداف محددة سلفًا قبل البحث والدراسة، ويصبح دور المستشرق تأويل ما ينتقيه أو يرصده من حالات فردية (لا تمثل سوى حالات استثنائية)؛ سعيًا إلى تشكيل انطباع عام، يؤدى إلى التأكيد على فكرة الفصل بين ما هو شرقى (متخلف/ ومتدهور) وبين ما هو أوربى أو غربى (متقدم / مزدهر) بصورة حتمية !!. ومن هنا

تصبح مهمة الأخير المتقدم أن ينهض بالأول المتخلف، وهو ما لايمكن تحقيقه ـ وفقًا للرؤية الاستشراقية ـ سوى من خلال أطروحة التدخل (الغزو الاستعمارى). وهذا ما يفسر ارتباط الاستشراق بالكولونيالية (الامبريالية). وعلى ذلك فالكتابة التاريخية الاستشراقية ليست اختبارًا لفرضيات أوطرحًا لإشكاليات تستهدف البحث عن إجابة (موضوعية)، وإنما هى نظرة متحيزة ذات طابع ايديولوجى ؛ من جراء شدة الإفراط فى التنظير المجرد والابتعاد عن حقيقة الواقع الاصلى المعيشى. الاستشراق بهذا المعنى لايقدم سوى " رؤية افتراضية " أو" صورة مُتخيلة" عن الشرق لاتمت للواقع التاريخى بصلة، ويصفها رءوف عباس " بالنظرة الأحادية للتاريخ".

إن هذا التناقض فى التوجه المنهجى بين المستشرقين والمؤرخين الإجتماعيين (أمثال رءوف عباس، وبيتر جران ونللى حنا وعاصم الدسوقى وغيرهم) يُمثل فى حد ذاته إشكالية مهمة فرضت وما تزال تفرض نفسها بقوة على ساحة العمل البحثى الاكاديمى، بما يجعلها حقيقة بأن يُفرد لها دراسة مجهرية خاصة، وأحسب أن لهذا النوع من الدراسات والبحوث أهمية كبيرة، جديرة بإعمال الفكر فى تطوير شكل الكتابة التاريخية عندنا، وفى انتاج أدوات معرفية ومنهجية جديدة، تمكننا من التصدى للاستشراق الذى يطور أفكاره وأطره النظرية بشكل مؤسسى مستمر، ويحتاج من ثم إلى جهود جماعية من المفكرين والمؤرخين حتى لا ينفرد المستشرقون بالساحة، ويحققوا بغيتهم فى الهيمنة على وعينا القومى بالتاريخ.

وفى هذا الإطار تأتى أهمية تحليل الطرح الفكرى النقدى عند رءوف عباس للدراسات الاستشراقية التى تناولت التأريخ للمجتمع المصرى والعربى الحديث والمعاصر؛ لما لذلك الطرح من أهمية ليس فى تحرير رؤيتنا لتاريخنا القومى من الأيديولوجيات الإستعمارية فحسب، وإنما كذلك فى النهوض بالكتابة التاريخية على أسس أكثر علمية.

بداية لابد أن نشير إلى أن ثمة مرتكزات أساسية فى فكر رءوف عباس، جعلته ينتقد جوانب أساسية ومحورية فى الفكر الاستشراقى، وتتلخص هذه المرتكزات فى النقاط التالية :

١ – أن المجتمعات لايمكن أن تتطور وفق سياق تاريخى واحد، فلكل مجتمع مقومات التطور الخاصة به، وليس ثمة نموذج واحد ووحيد للتطور ؛ وأنه لايوجد قانون واحد يحكم المجتمع، أى مجتمع، ومن ثم يتعين مراعاة جانب الخصوصية التى تنبع من الظروف البيئية، والتى تحدد مسار التجربة، وإذًا فأنماط التطور تتعدد وتتنوع تبعًا لتباين ظروف وسياق التطور فى كل مجتمع من المجتمعات. من هنا جاء رفضه للطرح النظرى الاستشراقى عند "دعاة التحديث" و "نمط الإنتاج الآسيوى" أو فكرة الاستبداد الشرقى"، أو فكرة " نمط الإنتاج الخراجى". ..إلخ فبيّن رءوف عباس أن هذا الطرح النظرى غير ملاءم لتفسير تطور المجتمع المصرى : فالبحث عن قسمات مشتركة تجمع بين مصر وغيرها من المجتمعات الزراعية النهرية كالهند والصين، أدى إلى تجاهل العديد من الحقائق

الفارقة بين تلك المجتمعات، مؤكداً على أن لكل مجتمع سياقًا خاصًا لتطوره، يختلف عن غيره من المجتمعات، وأن التشابه بينها هو مجرد تشابه جزئى، يقتصر على الملامح دون الجوهر. وهنا تحديداً تظهر المفارقة المنهجية بين رءوف عباس وغيره من المستشرقين : فهو ينظر إلى التاريخ الإنسانى باعتباره تياراً من التطور الذى لايثبت على حال واحد، على حين دعاة الاستشراق يحاولون البرهنة على وجود "جوهر ثابت" يمايز بين المجتمعات الشرقية والمجتمعات الغربية. ومن ناحية أخرى يبين رءوف عباس أن الإصلاح والتحديث الذى قام به محمد على فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، جاء على نسق مختلف عن النمط الغربى، ملبيًا للظروف الموضوعية للمجتمع المصرى التى تضرب بجذورها فى أعماق تاريخ مصر عبر العصر العثمانى، وأنه إذا كان قد استعان بالخبرة الأوربية فى شتى المجالات إلا أن ذلك كان على نطاق محدود، وظلت اليد العليا فى حركة الإصلاح لعناصر عثمانية (تركية) أو مصرية. وما تحقق على يد محمد على لم ينشأ من فراغ، وإنما اعتمد على الأساس الراسخ للتجربة التاريخية المصرية، ويعنى ذلك أن واقع مصر فى العصر العثمانى كان له شأن آخر، غير ذلك الذى شاع فى أدبيات الاستشراق، وينتهى رءوف عباس إلى أنه آن الأوان لإعادة تقييم تجربة التحديث فى القرن التاسع عشر على ضوء ما قد تتوصل إليه دراسة العصر العثمانى من نتائج.

٢ - يأخذ رءوف عباس على المدرسة الإستشراقية اتجاهها إلى

التعميم والتقاط بعض الشواهد دون النظر إلى سياقها، ثم استخلاص نتيجة معينة منها، وتعميم هذه النتيجة على المجتمعات الإسلامية أو الشرقية عمومًا ؛ للإيحاء بوجود " نموذج نمطى "واحد لكل المجتمعات الشرقية ". ويعتبر رءوف عباس هذه المسألة أحد أبرز أوجه القصور فى الدراسات الاستشراقية ؛ لأنها " تتجاهل عن عمد التباين الواضح فى مستوى النمو المادى والثقافى بين تلك المجتمعات وبعضها البعض"، ويرى أن " أى تعميم لظاهرة اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية على كل المجتمعات الشرقية يعد خطأ منهجيًا فاحشًا لأنه يقدم نتائج مُضللة وغير دقيقة ". فعلى سبيل المثال : يعيب رءوف عباس على المستشرقين إلصاق المجتمع العربى تحت الحكم العثمانى بنعوت " الجمود والركود والاضمحلال والتخلف " من دون دراسات رصينة تعتمد على المادة الأرشيفية الخاصة بتلك المجتمعات، حيث اعتمد المستشرقون على المصادر الثانوية (كتقارير الرحالة والقناصل الأجانب) التى " تهتم بالسطح ولا تغوص إلى اللباب" على حد قوله. كما يرى أن من الخطىء الجسيم عدم الأخذ فى الاعتبار اختلاف ظروف المجتمع الواحد من قرن إلى آخر، وأن حالة الضعف والتدهور التى مرت بها مصر والولايات العربية فى أواخر القرن الثامن عشر لاتبرر سحب استنتاجاتهم على العصر العثمانى كله الذى افترضوا مسبقًا أنه كان راكداً جامداً مضمحلاً. ولذلك يرى أن هذه النعوت المتعسفة قد جاءت " من منطلق شوفينى محض.. فلم يكن الحكم العثمانى قماطًا يحد من حركة المجتمعات

ويفرض عليها السكون والركود، وإنما كانت المجتمعات العربية تستجيب لظروفها الموضوعية ازدهارًا وكسادًا حسبما أملته الظروف، ولم تبق جامدة هامدة على النحو الذى تروجه الأدبيات الإستشراقية".

٣ – يرى رءوف عباس أن قدوم الغرب لم يكن بعثًا للحياة فى مجتمعات الشرق، وإنما كان من معوقات تطورها، ويعد هذا قلبًا لكل المنظومة الإستشراقية التى تحاول الترويج لفكرة شيوع " التخلف والركود الحضارى" فى المجتمعات الإسلامية الشرقية، وأن الغرب كان مضطرًا ؛ انطلاقًا من مفهوم " الرسالة الحضارية" المزعوم، لإزالة هذا التخلف والركود الذى ران على الشرق ؛ وذلك من خلال أطروحة الغزو. هنا يكشف رءوف عباس عن أن الاستشراق كان جناحًا مهمًا للمدرسة الإستعمارية، وأن تبرير التدخل الإستعمارى كان أحد الأفكار التى بلورها الإستشراق للقوى الإمبريالية. ويكشف عن حقيقة الدور الذى لعبه الاستعمار فى إعاقة النمو الإقتصادى فى البلاد التى خضعت لحكمه، وربطها باقتصاده بروابط التبعية كمناطق لتزويده بالمواد الخام فى أسواقه، وهى آليات ـ فى رأيه ـ أدت إلى إعاقة تكوين السوق الوطنية، وشل حركة نمو الإنتاج المحلى. بل إنه يؤكد على أن الاحتلال الإنجليزى كان مسئولاً عن إجهاض مشروع النهضة أوالتنمية الذاتية التى تحققت فى عهد محمد على، كما يعزى إليه تكريس التخلف الحضارى :" فالغرب لم يسمح إلا بتحول محدود للبنية الأساسية للمجتمع

المصرى، بالقدر الذى يتيح له ربط البلاد بروابط التبعية الإقتصادية والسياسية والثقافية". أما الحملة الفرنسية فإنه يرى أنها كانت بمثابة "صدمة" هزت المجتمع بدرجة عنيفة، أسفرت عن إفاقته من سباته العميق، فنشطت عوامل التغيير الكامنة فى المجتمع والتى استغلها محمد على أحسن استغلال فى تحقيق مشروع دولته الحديثة. وهو يوضح أن الإصلاح والتحديث لا يأتى إلا تلبية للظروف الموضوعية للمجتمعات (بنية وتكوينًا وتجربة)، ومن هنا جاء تشديده على ضرورة إعادة تقييم حجم الدور الذى أسهم به "بالمؤثر الخارجى" الممثل فى قدوم الغرب، وذلك على ضوء تحليل العوامل الكامنة فى المجتمع، والتى أطلق عليها " دور البنية الأساسية فى صياغة حركة المجتمع بكل أبعادها"، فالتحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى تاريخ المجتمعات مسألة معقدة، ولا يمكن تفسيرها من منظور " أحادى النظرة " وإلا جاء مجال الرؤية محدودًا، مما يؤثر على قيمة ما يتوصل إليه المؤرخ من نتائج تأثيرًا سلبيًا.

٤ – أما المرتكز الرابع والأخير فى الأطروحة الاستشراقية : فيقوم على أن الإسلام كدين وثقافة تسبب فى إحداث " فجوة حضارية" مع الغرب، وأن الثقافة الإسلامية تدعو إلى التواكل والتكاسل، ولا تحض على الابداع والابتكار، وأن سلبية الثقافة العربية الإسلامية هو ما جعلها لاتنتج سوى " التخلف"، وأن مفتاح التقدم يتمثل فى اعتناق الثقافة الغربية وطرح الدين والثقافة

الإسلامية جانبًا !. هنا يكشف رءوف عباس عن أن الاستشراق حاول تبرئة الساحة الغربية من تحمل وزر التخلف الذى ترتب على الموجة الاستعمارية التى اجتاحت معظم البلدان الإسلامية فى الشرق منذ القرن الثامن عشر. ويرى رءوف عباس أن هذا الطرح يعكس "الرؤية التفكيكية" (غير الموضوعية) التى ترمى إلى طمس الهوية الثقافية فى المجتمعات الشرقية، كما أنها تنكر على المجتمعات الشرقية إمكانية التطور والتحول والحركة الإنسانية، لتتسم صورة تلك المجتمعات فى آخر الأمر بعدم القدرة على الحركة والإنتاج، ويبين رءوف عباس " أن العالم الإسلامى وإن كان قد فقد وحدته إلا أنه لم يفقد قدرته على استيعاب الحضارة الإنسانية التى ورثها عن الشعوب التى دخلت تحت رايته، وأن العالم الإسلامى له رصيد تاريخى ثرى فى تجربة التواصل بين الثقافات، اقتباسًا وإبداعًا وعطاء". ثم يطرح تساءولات ساخرة فيقول : إذا كنا على هذا القدر من الكسل وفقدان الطموح وعدم التزام الدقة وعدم تقدير قيمة الزمن (وهى مكونات الصورة الافتراضية المزعومة) فكيف كنا نمسك بزمام اقتصاد العالم فى القرون الوسطى، وكيف استطعنا أن نتجاوز محاولات قطع روابطتنا التجارية مع عالم المحيط الهندى بعد قدوم الغرب إلى تلك البلاد، وكيف أنجزنا تجربة متميزة لبناء اقتصاد وطنى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ؟ إن هذه الأسئلة تبرىء الإجابة عليها ساحة ثقافتنا ودينا من تهمة استمراء التخلف وفقدان روح المبادرة.

ولاشك أن الطرح النقدى عند رءوف عباس للمنظومة الفكرية الاستشراقية يمثل محاولة جادة، تستند إلى أسس علمية وموضوعية فى الرد على ما جاء فى أدبيات الاستشراق، وتبين إلى أى حد يتعرض وعينا بتاريخنا القومى فى العالم العربى والإسلامى للتشويه والتزييف ما لم نشمر سواعدنا على مواجهة هذا التحدى الفكرى. وثمة ملاحظة لابد من إيرادها هنا وهى أن المفكرين والمؤرخين فى عالمنا العربى، ممن شغلتهم هذه المسألة طويلاً، هم قلة محدودة، فى حين أن الاستشراق الغربى يمثل مؤسسة كبيرة لها باع طويل فى ممارسة الاستشراق منذ ثلاثة قرون مضت، وتنتج بصفة مستمرة العديد من المفكرين والمؤرخين أرباب هذا الفكر، وتجدد منظومتها الفكرية وأدواتها المعرفية والمنهجية. ومن هنا فمن الخطورة أن لانتبنى مشروعًا فكريًا للنهوض بالكتابة التاريخية عندنا، وأن نجدد مناهجنا وأفكارنا، وأن نحقق التواصل المعرفى بصورة قوية مع الأفكار والرؤى التفسيرية الجديدة والمتجددة.

رءوف عباس
والتجربـــة اليابانيـــة

د. إسماعيل محمد زين الدين(*)

تعود اهتمامات رءوف عباس – رحمة الله – بدراسة تاريخ المجتمعات الآسيوية بصفة عامة والمجتمع اليابانى بصفة خاصة إلى منتصف ستينيات القرن العشرين، فبعد مرور شهر واحد من حصوله على درجة الماجستير (١٩٦٦م)، تعرف رءوف عباس إلى باحث يابانى كان يقضى عامين بمصر لجمع المادة العلمية والاتصال بالأساتذة المصريين. وكان هذا الباحث يعمل بمعهد لغات آسيا وإفريقيا وثقافاتها التابع لجامعة طوكيو للغات الأجنبية. وقد انتهت مهمته العلمية بعد هذا اللقاء بثلاثة شهور (مارس ١٩٦٧م).

وفى أبريل عام ١٩٦٩م جاء باحث يابانى آخر إلى القاهرة فى مهمة علمية بين القاهرة ولندن مدتها عامان وينتمى هذا الباحث إلى

(*) أستاذ التاريخ الحديث كلية الآداب – جامعة القاهرة.

" معهد اقتصاديات البلاد النامية " بطوكيو، وكانت لديه معلومات سابقة عن رءوف عباس من زميله الباحث اليابانى السابق. وقد التقاه رءوف عباس بصحبة محمد أنيس بمركز تاريخ مصر المعاصر ،وتولى الدكتور رءوف مهمة الإرشاد العلمى للباحث الزائر الذى كان مهتمًا بالتاريخ الاجتماعى، وقبل أن ينهى الباحث مهمته بالقاهرة فاتح رءوف عباس فى دعوته زميلاً زائرًا بمعهده لمدة عشرة أشهر للإشتراك فى حلقة بحثية لدراسة التطور الاقتصادى والاجتماعى بين مصر واليابان فى القرن التاسع عشر، يشارك فيها مجموعة من الباحثين اليابانيين المتخصصين فى تاريخ الشرق الأوسط فى تاريخ اليابان. وقد طلب رءوف عباس إرجاء الدعوة إلى ما بعد حصوله على الدكتوراة وشغله لوظيفة مدرس. وبالفعل تلقى الدعوة فور حصوله على الدكتوراة فى يناير ١٩٧١م، فطلب إرجاءها لمدة عام وهو ما تم بالفعل، فسافر إلى طوكيو فى ابريل ١٩٧٢م فى مهمة علمية مدتها عشرة أشهر(١).

كانت هذه المهمة العلمية – على حد قوله– فتحًا جديدًا لرءوف عباس ،أتاحت له الاحتكاك بمجتمع أجنبى له ثقافته المتميزة، كما أتاحت له الاحتكاك بمجموعة من الباحثين الذين استضافهم المعهد – معهد اقتصاديات البلاد النامية – جاءوا من أمريكا وبريطانيا وتايلاند والهند.وكان الحوار بين أولئك الباحثين يدور حول القضايا المنهجية والتنمية بمختلف أبعادها فى العالم الثالث فى ظروف الحرب الباردة، وهو ما دفع رءوف عباس إلى أن يوسع قراءاته حول

المنهج والتنمية وقضاياهما، وأحوال العالم الثالث من منظور مقارن.

وتأسيسًا على ذلك، فقد تعرف رءوف عباس فى اليابان على الفكر النقدى الماركسى بعمق كما قدمه " موريس دوب"، وحرص على نقل كتابه " دراسات فى تطور الرأسمالية" إلى اللغة العربية وقد نشر بالقاهرة عام ١٩٧٩م. وتعرف إلى فكر كل من "كار ل فيتفوجل K. " Witvogelحول تطور المجتمعات النهرية، و"رستو W. "Rostowحول " مراحل التطور الاقتصادى " التى عارض بها الماركسية، كما تعرف إلى فكر " ماكس فيبر M. "Weber. ولم يكن تعرفه إلى تلك الأفكار مجردًا، بل كان مقترنًا بقراءة دراسات اهتمت بتطبيق بعض هذه الأفكار وأخرى عنيت بنقدها. فكان له أعمق الأثر فى تكوينه وإنتاجه العلمى فى العقدين التاليين(٢).

اليابان فى عصر مايجى

لما كان موضوع الحلقة البحثية على مدى الشهور العشرة يدور حول التطورالاقتصادى والاجتماعى فى مصر واليابان فى القرن التاسع عشر من منظور مقارن، لذا حرص رءوف عباس على أن يكثف قراءاته حول تاريخ اليابان فى تلك الفترة، فتشعبت قراءاته وتعمقت فى تاريخ اليابان فى القرن التاسع عشر، وتأصلت حتى أثمرت أول دراسة علمية باللغة العربية كانت موضوع كتابه " المجتمع اليابانى فى عصر مايجى ١٨٦٨– ١٩١٢م" الذى نشر بالقاهرة عام ١٩٨٠م.

ويذكر رءوف عباس الأسباب التى حدت به لتأليف هذا الكتاب، وهو افتقار المكتبة التاريخية العربية إلى الدراسات الخاصة ببلدان آسيا عامة والشرق الأقصى خاصة، ومن هنا كان اهتمامه بدراسة تاريخ اليابان الحديث فى القرن التاسع عشر، وقد تجلى ذلك الاهتمام فى عدد من البحوث التى نشر بعضها باللغة الإنجليزية وبعضها الأخر باللغة العربية، إلى أن جذب عصر مايجى انتباه رءوف عباس ،باعتباره يمثل بداية التحديث فى اليابان، وفيه تغيرت ملامح المجتمع اليابانى، ومنه نبعت الحركات السياسية والتيارات الفكرية التى حددت مسار التاريخ اليابانى المعاصر، فكانت دراسة رءوف عباس عن هذا العصر هى أول دراسة عربية عن تاريخ اليابان الحديث، وهى التى فتحت الباب أمام فرع جديد للدراسات التاريخية العربية ظل بعيداً عن اهتمام الباحثين العرب والهيئات العلمية العربية، وفتح المجال – فيما بعد – للاهتمام بالدراسات الآسيوية. وقد كانت فى واقع الأمر دراسة متعمقة للمجتمع اليابانى فى خلال تلك الفترة، اعتمدت على كم هائل من المصادر والمراجع اليابانية والإنجليزية.

وتضم هذه الدراسة العلمية الرصينة تمهيداً وستة فصول وخاتمة. تناول التمهيد المجتمع الإقطاعى فى عصر طوكو جاوا (أوائل القرن السابع عشر) ويبين المؤثرات الداخلية والخارجية التى أدت إلى تفسخ هذا المجتمع، وأثر الضغط الغربى فى انفتاح اليابان على العالم الخارجى ،وإقامتها علاقات دبلوماسية وتجارية مع الغرب. وقد بين رءوف عباس أن رياح التغيير التى هبت على

المجتمع الإقطاعى اليابانى وعصفت به فى نهاية الأمر قد تحركت من على الأرض اليابانية ذاتها، وصاحبها الضغط الغربى على السلطة الإقطاعية لإنهاء العزلة السياسية التى فرضتها على البلاد والانفتاح على العالم الخارجى، وبالتالى كانت نهاية نظام الإقطاع والتمهيد لقيام نظام جديد يختلف عن سابقه فى سماته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية.

أما الفصل الأول فكان بعنوان " إرساء قواعد عصر جديد " استمر حتى عام ١٩١٢م أوضح فيه رءوف عباس أن التغير كان فى شكل السلطة وشخص من يمسك بزمامها، وتغير المجتمع من النواحى الاجتماعية والاقتصادية، وكذلك تغير أداة الحكم والقوة التى تمسك بزمام الأمور فى البلاد، كذلك تغيرت الأفكار والعادات والقيم. وكان على القيادة الجديدة أن تواجه المشكلات الملحة، وعلى رأسها إصلاح مالية البلاد، ومقاومة الزحف الغربى، بعد أن أدرك هؤلاء القادة الجدد فى العهد الجديد أن بلادهم تعانى تخلفاً فى مختلف الميادين، وخاصة الاقتصاد وأداة الحرب ،فعملوا على اللحاق بالغرب فى هذين الميدانين ،تماماً كما فعل محمد على فى مصر من قبل، عندما أدرك أن عظمة الدول الغربية وقوتها إنما ينبع من تفوقها فى المجالين الاقتصادى والعسكرى.

وقد اتخذ قادة النظام الجديد من شعار " إثراء الدولة وتقوية الجيش" الذى رفعوه فى تلك المرحلة دليلاً للعمل على النهوض بالبلاد. ولتحقيق ذلك كان على النظام الجديد أن يثبت أقدامه فى

البلاد بالقضاء على بقايا القوى المؤيدة للنظام القديم، وكذلك توطيد أقدامه فى الأقاليم التى كانت لا تزال تمارس سلطاتها الإقطاعية. وهذا ما فعله محمد على أيضًا عندما قام بالقضاء على المماليك والنظام القديم ،كما تخلص من المعارضة الوطنية الممثلة فى المشايخ والعلماء، وبالتالى فقد ثبت أقدامه فى البلاد.

وقد مست إصلاحات النظام الجديد فى اليابان النواحى الإدارية والمالية، وأدت إلى إلغاء النظام الإقطاعى، وتعديل النظام الطبقى بما يتلاءم مع الأوضاع الجديدة كذلك مست هذه الإصلاحات النظام القضائى ونظام الجيش والبحرية، وإقامة نظام تعليمى حديث على النسق الغربى الفرنسى، وفقًا لما حددته لائحة عام ١٨٧٢م، وبدأ الاهتمام بأساليب التربية الألمانية التى تؤمن بأن هدف التعليم خلق الإدارة المستنيرة القادرة على التمييز بين الصواب والخطأ. وكان الطلاب يقيمون فى مدارس داخلية ويحيون حياة شبه عسكرية، ومن شأن ذلك أن يذكرنا بما فعله نظام محمد على التعليمى فى مصر من قبل. وقد أولت حكومة مايجى – كما يقول رءوف عباس – تعليم البنات اهتمامًا خاصًا، وأوفدت بعثة من خمس بنات إلى أمريكا، كما افتتحت أول مدرسة للبنات بطوكيو عام ١٨٧٢م لتعليم البنات، وهو العام نفسه الذى افتتحت فيه حكومة الخديو إسماعيل أول مدرسة لتعليم البنات فى مصر الحديثة.

وتناول الفصل الثانى، الإصلاح الزراعى وأثره فى المجتمع الريفى حيث أوضح رءوف عباس أن الإصلاح الزراعى الذى

صاغته حكومة مايجى ونفذته كان بالغ الأثر فى إحداث ظواهر اجتماعية نجمت عنه مثل : بداية تكوين سوق العمل، وتكوين السوق الوطنية وتحديدها فى إطار معين، وإيجاد فائض سكانى له سمات خاصة انفردت بها اليابان دون غيرها من البلاد، ونمو الطبقة العاملة، واكتساب عمل المرأة طابعًا لم يكن له من قبل. وكانت أولى هذه الإصلاحات الزراعية وأهمها تتمثل فى استقرار الملكية الفردية، وهو يذكرنا بما حدث فى مصر من تطورات فى هذا الشأن منذ عصر "محمد سعيد باشا" وحتى بدايات الاحتلال البريطانى عندما استقرت الملكية الفردية فى مصر عام ١٨٩١م.

أما الفصل الثالث فقد تعرض فيه لحركة التصنيع ونمو الرأسمالية، بعد أن توافرت فى عصر مايجى الشروط اللازمة لنجاح حركة التصنيع، من رأس المال والعمل، ووجود نظام للإنتاج وتداول للسلع، وتقسيم العمل، وتوافر حد معين لتراكم رأس المال فى أيدى المنتجين، ووجود عرض متدفق من العمل الحر، يعرض للبيع فى سوق العمل لقاء أجر تحدده ظروف العمل. وقد بين رءوف عباس أن الصناعة اليابانية الحديثة استطاعت أن تبلغ إنتاجها حد القدرة على منافسة منتجات البلاد الأوربية فى السوق المحلية والسوق الخارجية وتكون ما عرف (بالكارتلات) للسيطرة على تلك الصناعة، مثلما كان يحدث فى الغرب حيث جرت عادة رأس المال الكبير على النمو عن طريق ابتلاع رءوس الأموال الصغيرة، وخاصة عند وقوع الأزمات الاقتصادية وما يصحبها من تضخم.

أما الفصل الرابع، فقد خصصه رءوف عباس للتوسع الخارجى، مشيراً إلى أن السياسة الإمبريالية التى انتهجتها حكومة مايجى والتى اتخذت شكل التوسع على حساب كوريا والصين، كانت تهدف فى الأساس إلى إيجاد سوق خارجية ملائمة لتصريف منتجات الصناعة اليابانية الحديثة، وإتاحة فرصة النمو السريع أمام رأس المال اليابانى. فالتوسع الخارجى لليابان كان بهدف الحصول على مطالب و امتيازات فى آسيا وخاصة المناطق ذات الأهمية الاستراتيجية وكان المجال هنا كوريا والصين ومنشوريا، مما ترتب عليه اندلاع العديد من الحروب بين اليابان وجيرانها بالإضافة إلى الحرب اليابانية الروسية وهذا الوضع ،وتلك السياسة الخارجية لليابان تشبه – إلى حد ما – ما فعله محمد على فى حروبه الخارجية، بهدف إيجاد أسواق خارجية لتصريف المنتجات الوطنية، فكان غزو السودان وحروبه فى بلاد الشام والجزيرة العربية لتحقيق أهداف اقتصادية واستراتيجية.

استعرض رءوف عباس فى الفصل الخامس الحياة السياسية فى هذه الفترة موضع الدراسة، حيث بين أن صناع القرار فى نظام مايجى قد استقروا على اختيار النموذج الغربى كإطار للدولة الحديثة، وهنا واجهتهم مشكلة الاختيار بين دولة ليبرالية ديمقراطية، أو دولة اوتوقراطية يستند الحكم فيها إلى بيروقراطية مركزية، وكان النموذج الأخير للدولة أكثر تقبلاً عندهم، فهو يهيئ للسلطة فرصة إجراء ما تشاء من إصلاحات دون أن تعرقل جهودها عقبات

تأتى من جانب المجالس النيابية، كما أن الحكم المطلق والسلطة المركزية أكثر قبولاً لدى اليابانيين بحكم تراثهم الثقافى والسياسى. وهو يشبه ما حدث فى مصر طوال القرن التاسع عشر منذ عصر محمد على ومن أتى بعده حتى عهد الاحتلال وفترة السيطرة البريطانية (١٨٨٢– ١٩١٤م) حيث كان الحكم أوتوقراطيًا والمجالس النيابية صورية.

ورغم النظام السياسى الذى اختارته اليابان فى خلال هذه الفترة، إلا أن ذلك لم يمنع نشاط المعارضة فى المطالبة بالدستور وإنشاء مجلس نيابى حقيقى، ونشوء أحزاب سياسية، وهو ما حدث بالفعل، لتبدأ مرحلة جديدة فى الحياة السياسية فتحت المجال أمام تشكيل حكومات حزبية مسئولة أمام الدايت " البرلمان" اليابانى.

وقد أفرد رءوف عباس الفصل السادس والأخير للحياة الفكرية، حيث بين أن عصر مايجى قد شهد ازدواجية فى الحياة الفكرية بين الفكر التقليدى القديم الذى أخذ روافده من التراث اليابانى، وبين الأفكار الغربية الوافدة على اليابان من الغرب نتيجة للاحتكاك بالحضارة الغربية فى مرحلة التحديث. ويعد "فوكوزاوا" من أبرز رواد الفكر الليبرالى فى عصر مايجى. وقد ركز "فوكوزاوا" فى كتاباته على أهمية التجربة كسبيل للتقدم، لأن" التقدم لا يتحقق إلا من خلال مئات وآلاف التجارب " وقد تقدمت المدنية والنظم السياسية من خلال العديد من التجارب، وقد خلص رءوف عباس بأن الحياة الفكرية فى عصرمايجى كانت تموج بتيارات عديدة، بعضها

يعكس المؤثرات الغربية كالليبرالية والمسيحية والاشتراكية، وهى تيارات غلبت على الحياة الفكرية فى النصف الأول من ذلك العصر، فى مرحلتى التحول والاستنارة وتقوية الجيش وإثراء الأمة.وتحول التيار القومى فى النصف الثانى من عصر مايجى إلى اتجاه" شوفينى" يستمد ركائزه من الفكر التقليدى القديم.

لقد كانت المهمة العلمية اليابانية – على حد قوله– انقلاباً فى حياته العلمية ففضلاً عن إسهاماتها فى تكوينه المنهجى، وفى التاريخ المقارن، وتعمقه فى دراسة تاريخ اليابان فى القرن التاسع عشر، فإنها أكسبته مهارات بحثية جديدة ،ومنحته فرصة نادرة للتعامل باللغة الإنجليزية فى المجال الأكاديمى، وفى الكتابة بها. كما أتاحت له فرصة الاحتكاك بالمجتمع اليابانى والتعرف إلى ثقافته، والإلمام بمبادىء لغته.

التنوير بين مصر واليابان

ومن خلال تلك الدراسة المتعمقة للمجتمع اليابانى فى عصر مايجى زاد اهتمام رءوف عباس بالفكر التنويرى ورائده " فوكو زاوا يوكيتشى" والتى ميز رءوف عباس بين ثلاث مراحل تطور من خلالها فكره : المرحلة الأولى (١٨٦٢–١٨٦٩م) ركز فوكو زاوا من خلالها على التعريف بالحضارة الغربية من خلال بعض الكتب التى ذاع صيتها فى تلك الفترة. وفى المرحلة الثانية (١٨٦٩–١٨٧٧م) اهتم فوكو زاوا بإبراز ما يمكن أن تفيد به اليابان من حضارة الغرب وعلومه. أما المرحلة الثالثة والأخيرة، فتمتد من عام ١٨٧٧ حتى

وفاته عام ١٩٠١م، ووضع فيها صيغة يابانية للفكر الحديث فى محاولة للتوفيق بين الوافد والموروث من الأفكار.

وقد لاحظ رءوف عباس بعض أوجه الشبه بين فكر فوكو زاوا وفكر" رفاعة الطهطاوى" رائد الفكر العربى الحديث، ومن هنا كانت فكرة كتابة دراسة مقارنة لفكر هذين الرائدين، وقد استطاع رءوف عباس أن يجمع التراجم المهمة لأعمال فوكو زاوا والتى نشرت بالإنجليزية بالإضافة إلى أعمال رفاعة الطهطاوى، وبقى – على حد قوله– إعداد الدراسة وما يحتاجه من مراجعة المتخصصين فى تاريخ الفكر اليابانى الحديث، فكانت دعوة معهد "دراسة لغات وحضارات آسيا وإفريقيا" التابع لجامعة طوكيو، كانت دعوة لرءوف عباس كأستاذ زائر لمدة عام (١٩٨٩–١٩٩٠م) تفرغ من خلاله تماماً لإعداد هذه الدراسة، مع استشارة أهل الاختصاص فى مراحل الكتابة وعقد حلقات نقاشية فى جامعات" طوكيو" و"كيو" و"ايباراكى" و"اوساكا" لطرح ما توصل إليه رءوف عباس من نتائج ومناقشتها مع كبار الأساتذة المتخصصين فى تاريخ الفكر اليابانى وأساتذة تاريخ الشرق الأوسط بالجامعات اليابانية، وبعد أن تم ذلك كله صدرت الدراسة فى طوكيو بالإنجليزية فى نوفمبر من عام ١٩٩٠م.

ولما لم يكن قد تعرف إلى هذه الدراسة فى وطننا العربى سوى نفر قليل ممن أتيحت لهم قراءتها بالإنجليزية، على حين اهتم بها الباحثون اليابانيون وكانت مثار تعليقات وعروض نقدية ظهرت فى

مجلات علمية يابانية عديدة، كما نوهت بعض الصحف فى صفحاتها الثقافية إلى هذه الدراسة ومدى أهميتها، لذلك كان قرار رءوف عباس بإصدار طبعة عربية من الكتاب لا تكون مجرد ترجمة للطبعة الإنجليزية حتى يطرحه على القارىء العربى من منظور يتوافق مع الثقافة العربية واهتماماتها. فكان صدور الطبعة العربية فى عام ٢٠٠١م من سلسلة مختارات ميريت للنشر والمعلومات بالتعاون مع مؤسسة اليابان Japan Foundationالتى أسهمت فى مشروع النشر ودعمته.

وقد استهل رءوف عباس الدراسة بتمهيد حول الإطار التاريخ لمصر واليابان فى العصر الحديث، والتطورات التى مرت بكل منهما من أجل الوصول لبناء الدولة الحديثة.

وتناول فى الفصل الأول حياة كل من الطهطاوى و فوكو زاوا وتكوينهما الثقافى، مشيراً إلى دورهما المتميز فى حياة مجتمعيهما من خلال ما قدماه من جهد وعطاء فى المجالات الثقافية والعلمية والسياسية، ولكن ذلك لم يكن يعنى – كما يقول رءوف عباس– تماثل الشخصيتين تماثلاً تاماً، فقد اعتمد فوكو زاوا فى ثقافته على جهده الفردى، وكان فى اتصاله بالثقافة الصينية التقليدية أو بالعلوم الهولندية أو حتى باللغة الإنجليزية اتصالاً سطحيًا، على حين كان الطهطاوى أوفر حظًا من الغوص فى الثقافتين الإسلامية التقليدية من خلال دراسته فى الأزهر وكذلك الغوص فى الثقافة الأوربية من خلال أعمال مفكرى عصر التنوير ومن خلال تجربة المعايشة الطويلة

أيام بعثته إلى فرنسا وليس مجرد الزيارات الخاطفة على نحو ما فعل فوكو زاوا وكان تقديمه للمجتمع الغربى فى" تخليص الإبريز" بالغ العمق مقارنة بالعمل الذى صنع شهرة فوكو زاوا "أمور غربية".

ورغم ذلك، فقد كان لكل من الرجلين دور مميز فى ريادة حركة التنوير فى بلاده، وترك كل منهما أثرًا كبيرًا فى تطور الفكر الحديث والثقافة الوطنية فى بلاده.

أما الفصل الثانى فقد تناول فيه النظام السياسى الجديد حيث بين رءوف عباس مدى اهتمام كل من فوكو زاوا والطهطاوى فى مجال الفكر السياسى بإعادة النظر فى الأفكار التقليدية التى تبرز سلطة الحاكم والحكومة من أجل دفع عجلة التقدم إلى الأمام فى تكوين الدولة الحديثة وكيف واجه كل منهما مهمة وضع إطار النظام السياسى الجديد الذى اقتضته ظروف بلديهما –اليابان ومصر– فى مرحلة التحول إلى الدولة الحديثة وقد أوضح رءوف عباس أن كلاً منهما استقى فكره من واقع ظروف مجتمعه وصاغ إطار فكره السياسى على ضوء تلك الظروف والمعطيات الاجتماعية والثقافية الموروثة والمكتسبة فى بلده.

وفى الفصل الثالث يحدثنا رءوف عباس عن النظام الاجتماعى الجديد التى دعت التغيرات التى شهدتها اليابان فى عصر مايجى ومصر فى أواخر عصر محمد على إلى ضرورة البحث عن أطر فكرية تواكب التغيرين الاقتصادى والاجتماعى فى مرحلة التحول وتعمل على فتح آفاق التطور أمام المجتمع بعد أن أفرزت مشروعات

التحديث نظاماً اجتماعياً جديداً كنتاج للتطورات الاقتصادية ولم تعد القيم التقليدية صالحة للتعامل مع تلك الظروف ومن ثم أصبحت هناك حاجة ماسة إلى قيم جديدة كانت الشغل الشاغل لرواد التنوير ومثل هذا الجانب ركناً أساسياً فى فكر كل من فوكو زاوا والطهطاوى فى سعيهما لبناء المجتمع الحديث فى بلديهما. ورغم أن أهداف فوكو زاوا والطهطاوى كانت متشابهة، غير أن كل منهما عالج مشكلة العلاقات الأسرية الجديدة من منطلق يختلف تماماً عن صاحبه. بحكم اختلاف الظروف الموضوعية لليابان ومصر فى ذلك العصر.

أفرد رءوف عباس الفصل الرابع للتعليم والمعرفة الحديثة حيث أوضح أن فوكو زاوا والطهطاوى كان لهما موقف محدد من المعرفة الغربية باعتبارها أساس التعلم كما دعا كل منهما إلى تحقيق التوازن فى برامج التعليم بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية واتفقا على أن التعليم والمعرفة الحديثة هما مفتاح الطريق إلى الحضارة، وأن العلم والتعليم يجب أن يحظيا برعاية الدولة كما اتفقا على أن يكون التعليم العالى للصفوة (نخبوياً)ولكن الطهطاوى كان أكثر ليبرالية وتقدماً من فوكو زاوا فيما يتعلق بتعليم البنات. استعرض رءوف عباس فى الفصل الخامس والأخير الأسس التى يجب إتباعها لسلوك طريق التقدم والحضارة فبين أن كلا من فوكو زاوا والطهطاوى قد استقيا معظم أفكارهما المتصلة بالتاريخ والحضارة من كتابات المؤرخين الغربيين فكلاهما تأثر كثيراً بكتاب

"جيزو" Guizotعن تاريخ الحضارة الفرنسية وقد أضاف إليه فوكو زاوا كتاب " باكل" Buckleعن تاريخ الحضارة فى انجلترا. وقد قدر كل من فوكو زاوا والطهطاوى الحضارة الغربية تقديراً كبيراً وجعلا هدفيهما أن تلحق بلادهما بأعلى درجات الرقى الحضارى ولكنهما لم يطرحا أفكارهما دون تحفظات. وكانت هناك خلافات جوهرية بين أفكار فوكو زاوا والطهطاوى فيما يتصل بتكوين الشكل الوطنى المتميز لحضارة بلادهما. فبينما سعى فوكو زاوا على صياغة نظام أخلاقى جديد من خلال ما أسماه"روح العصر " تمسك الطهطاوى بالقيم الخلقية الإسلامية كإطار لاغنى عنه لعملية التطور الحضارى الحديث غير أن الرجلين اتفقا على مبدأ الانتقاء عند الاقتباس من الحضارة الغربية. وهكذا صحبنا رءوف عباس – رحمه الله – فى رحلة علمية ودراسة عميقة استغرقت من وقته وجهده الكثير لرائدين من رواد التنوير فى مصر واليابان وهى دراسة مقارنة لم يتطرق إليها أحد من قبل.

يوميات هيروشيما

أما يوميات هيروشيما (٦ من أغسطس – ٣٠ من سبتمبر١٩٤٥ م)فهى تمثل –على حد قوله– وثيقة تاريخية إنسانية تصور أبعاد المأساة والآثار التى ترتبت عليها وهى عبارة عن يوميات حرص على تدوينها شاهد عيان، عاصر الحادث من بدايته صباح السادس من أغسطس ١٩٤٥ م من موقع المسئولية كمدير لمستشفى" مصلحة المواصلات" بالمدينة حتى آخر سبتمبر من نفس العام حين تسلمت

إدارة المستشفى لجنة طبية أمريكية.

وقد نشرت اليوميات أول ما نشرت باللغة اليابانية بمجلة طبية ثم جمعت فى كتاب نشر باليابانية وطبع عدة طبعات وبعد ذلك ترجم الكتاب إلى الإنجليزية وطبع بها تحت عنوان "يوميات هيروشيما"فى عام ١٩٥٥م.

وترجع صلة رءوف عباس بيوميات هيروشيما إلى عام ١٩٧٢م عندما ذهب إلى اليابان أول مرة كأستاذ زائر وهناك كانت رغبته فى مشاهدة هيروشيما ونجاساكى ليشهد – على حد قوله – آثار بصمات الإمبريالية والدمار الذى تركته هناك. وقد هز وجدانه الآثار التى رآها" بمتحف السلام" الذى يقع بالقرب من محطة سكة حديد هيروشيما ويحمل بصمات الدمار الذى حاق بالمدينة. وهناك وقع فى يده كتاب "يوميات هيروشيما" وعن هذا يقول رءوف عباس :"فربطت بحس دارس التاريخ بين شهادة المؤلف وآثار المأساة الماثلة أمامى وعقدت العزم على نقل هذه الوثيقة الإنسانية التاريخية إلى قراء العربية فزرت هيروشيما ثلاث مرات فى خلال وجودى باليابان طفت من خلالها بأرجاء المدينة لأستطلع معالم المسرح الذى جرت عليه حوادث الكتاب كما أعطتنى زيارة مرضى " الإشعاع الذرى" الذى يضم أنصاف الأحياء أو أنصاف الموتى من ضحايا المأساة انطباعًا عن الأثر الذى تركه الحادث فى الناس ".

والكتاب – على حد قوله – عبارة عن يوميات كان يكتبها المؤلف – الدكتورهاتشيا– يومًا بيوم أحيانًاأو يكتب حوادث بضعة أيام فى

وقت واحد أحيانًا أخرى إذا حالت مسئولياته الجسام كمدير لمستشفى المواصلات بالمدينة عن متابعة الكتابة بصفة يومية وقد أكد المؤلف على أنه كان أمينًا فى نقل الروايات التى سمعها فلم يزد عليها حرفًا وفى التعبير عما شاهده دون مبالغة. وقد عبر بصدق بالغ –كما يقول رءوف عباس – عن التمزق النفسى الذى عاناه الشعب اليابانى بعد الهزيمة كما أفرد سطوراً عديدة لأعراض مرض الإشعاع التى كانت مجهولة له ولمساعديه فى ذلك الحين.

لذلك كان حرص رءوف عباس – كما أشرنا من قبل – على زيارة هيروشيما بترتيب خاص مع قسم التاريخ بجامعتها فبهره ما رآه فى " متحف السلام" المقام على حديقة السلام والذى يعبر تعبيراً صادقًا عن هول الجريمة التى ارتكبتها "زعيمة العالم الحر" ضد شعب أنهكته الحرب وكان يتفاوض من أجل الاستسلام لمجرد اتخاذه معملاً لتجربة آثار السلاح الجديد.

وإلى جانب هذا الكتاب الذى اشتراه رءوف عباس من منفذ بيع الكتب فى المتحف، حصل على كتيب بالإنجليزية يضم بعض شهادات من نجوا من الموت من سكان المدينة وعندما قرأ اليوميات والشهادات اكتشف أن ما يقال عن آثار السلاح النووى على البيئة والإنسانيتضاءل أمام حقيقة ما حدث.

ولما كانت اليوميات والشهادات قد ترجمت إلى سبعة عشر لغة حية فقد اعتزم رءوف عباس – كما أشرنا من قبل– على أن يجعل العربية اللغة الثامنة عشرة التى تنقل إليها ليقينه أن القارىء العربى

لابد و أن يقف على حجم الجرم الذى ارتكبته الولايات المتحدة الأمريكية فى حق الإنسانية وليُسهم فى كشف الستار عن زيف الدعاوى التى يروجها البعض عنها فى الوطن العربى.

لم يشأ رءوف عباس أن يقدم نص الكتاب دون أن يمهد للقارىء العربى الموضوع فأفرد فصلاً بعنوان "الطريق إلى هيروشيما" بين فيه الظروف الاقتصادية والاجتماعية التى أفرزت النظام الفاشى فى اليابان والأطماع الإمبريالية التى ورطت اليابان فى الحرب العالمية الثانية والآثار التى ترتبت على الهزيمة ومبررات استخدام الولايات المتحدة الأمريكية للقنبلة الذرية فى الحرب ضد اليابان بالذات رغم انهيار المقاومة العسكرية اليابانية فيما عرف بمعركة "الباسفيكى"حتى تتضح معالم الصورة وتتجلى أمام القارىء جوانب هذه المأساة التاريخية(٣).

ومن خلال هذا العرض لتجربة رءوف عباس – رحمه الله– فى اليابان منذ مطلع سبعينيات القرن العشرين يتضح لنا أنها لم تأت بثمارها على رءوف عباس فحسب ولكنها أثرت المكتبة التاريخية بدراسات متعمقة وبحوث جديدة حول قضايا المنهج وإشكاليات الكتابة التاريخية ومنهج الدراسات المقارنة كما أطلعت القارىء العربى بوجه عام، والمصرى بوجه خاص على تاريخ اليابان الحديث والمعاصر والذى كان من شأنه أن يمثل فتحًا جديداً لمن يتطرق إلى دراسة تاريخ المجتمعات الآسيوية بوجه عام وتاريخ اليابان بوجه خاص.

---

(١) مشيناها خطى، ص ٨٧، وقد امتدت المهمة العلمية ستة أشهر أخري.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) قد انتهي من ترجمة كتاب (اليوميات والشهادات) عام ١٩٥٧، وصدر ١٩٧٧

رؤوف عباس مترجما

شوقى جلال

الحديث عن الراحل الدكتور رءوف عباس متعدد الأبعاد وزاويا الرؤية. ... رءوف العالم الأكاديمى المثقف الباحث المترجم. ... والمناضل فى كل هذه المجالات على نحو متكامل ومتناسق التماسه لرؤية صواب عن تاريخ. ومن ثم عن حاضر ومستقبل مجتمعة المصرى وعن الإنسانية عامة تأسيسا على نقد عقلانى يلتزم منهم التفكير العلمى.

وحين نتحدث عن الترجمة والمترجم هنا، فإننى أشير إلى الترجمة بمعناها الواسع من حيث هى الآلية مجتمعية لنقل المعرفة وتمكين الوعى الإنسانى تهيئة لفعل حضارى راهن ومستقبل. معنى هذا١ أننى لن أتحدث عن الترجمة الحرفية لنقل نص من لغة إلى لغة، ومن ثم تنحصر قضاياها فى مشكلات وقواعد ودلالية، وإنما أعنى

الترجمة من حيث الجهد التنويرى المتمثل فى نقل نص أو التعريف بمصادر معلومات غير متاحة وحفز آخرين إلى أن يكونوا رفاق طريق من أجل بناء وتجديد الوعى وتغيير الواقع. ... جهد تنويرى لالتماس المعرفة على يدى الذات / المترجم. وعلى أيدى فريق مشارك ليصيب الجهد فى طريق مشترك. والترجمة هنا نشاط إبداعى مكمل لعامل الإبداع العلمى والفكرى صفرا لحركة المجتمع الدينامية الناهضة.

وهنا أيضا المترجم / المثقف / المبدع / الموقف / الرسالة / الدور الاجتماعى والأكاديمى فى أن. وتمثل الترجمة الحالة، فى الحالة تجليات لثقافة المترجم وآفاق المعرفة عنده وطموحات ورؤاه الاجتماعية. ونستطيع أن نستكشف، نكشف هذه البيئة الثقافية من واقع اختيارات ومنهجه فى الإنجاز.

وهذا ما اعتزم الإشارة إليه.

وإذ أصف الراحل بأنة عالم أكاديمى مثقف وأرى ذلك ميزة وتمايزا وأن ثقافته قوة حافزة لنشاط الترجمة وعامل محدد فى هذا المضمار فإننى أرجو أن تسمحوا لى بان أشير هنا إلى قضية أخلاقية تمس صلب موضوعنا وهى الأعم بأن ثمة فاصلٍ أو تناقضٍ بين النشاط الأكاديمى والثقافة الاجتماعية. وتجرى صياغة هذه القضية فى عبارة "العلم والمجتمع " أى هل يكون الأكاديمى مثقفا أى معنيا بقضايا وهموم المجتمع ؟ ووراء الاختلاف ووجهات نظر ومصالح. .... والسؤال : أين كان موقع راحلنا وهو كما قلت العالم

الأكاديمى المثقف والمترجم. ..؟. ... إذ روَّج البعض لمقولة أن البحث العلمى الأكاديمى منهجا ونظرية وموضوعا شأن آخر غير الاهتمام بقضايا المجتمع وكأن الباحث العلمى مجرد من سياقه الاجتماعى ؛ وكأن البحث العلمى نشاط ذاتى. ... مثلما قيل الفن للفن. .... وكأن التقدم الحضارى للمجتمعات لم يكن رهن التقدم العلمى وتجلياته فى حياة البشر وحسم مشكلات الحضارة ووضوح رؤى المستقبل. .... ومثل هذه النظرة تريد عالمًا منفصلاً عن مجتمعة باسم الاستقلال الأكاديمى وتريد مجتمعا أعزل من سلاح الفكر العلمى كحافز للحركة والتطور، وأداة لصياغة رؤى المستقبل ورسم خطوت المجتمع على طريق صحيح ومن ثم يكون المجتمع سلس الانقياد. .. ويدعم هذا الرأى عادة من تربعوا على سدة سلطان الأمة وأضحى همُّهم الحفاظ على الوضع القائم لا التغيير.

ولكن المجتمعات دائمًا تضم من العلماء والباحثين والمفكرين من يؤمنون بأن العلم للمجتمع واستجابة لقضاياه ؛ وأن العالِمَ نبتُ موطنه، ولسان معبر عن همومه، لصوب تفكيره، وباحث له عن سبل الخلاص، ومؤسس لدعامات رؤية علمية منهجية. .... أو بمعنى آخر أن العلم للمجتمع، وأن الأكاديمى بامتياز هو المثقف اجتماعيًا، المشارك إيجابيًا بعلمه لخير المجتمع إبداعا.

ولقد كان الراحل فى نشاطه الإبداعى علما وترجمةً تجسيدًا لهذه الرؤية التنويرية " العلم للمجتمع " والعالِمَ نبت موطنة. .... ومن ثم كان نشاطه العلمى المتعدد تجليا لهذه النظرة. وتمثل الترجمة عنده

نشاطًا اجتماعيًا مكملاً لعامل الإبداع العلمى والفكرى ليصب الاثنان فى حركة المجتمع الديناميه الناهضة أو ليحفز المجتمع فى هذا الاتجاه. ولهذا كان فى مجال الترجمة هو المترجم المثقف /المبدع/الموقف/الرسالة/ والدور الاجتماعى والأكاديمى فى آن.

وحرى أن نتأمل ترجماته لنجدها شاهد صدق على ما نقول. تمثل الترجمة عنده مشروعًا موازيًا متكاملاً مع مؤلفاته فى صورة جهد نضالى من أجل تصحيح الوعى التاريخى ورد الاعتبار للإنسان والوطن. إذ كان يدرك أن تاريخنا ليس تاريخ ما سطره الأجنبى من واقع مصالحه وانحيازا ته، وليس تاريخ حاكم فرد وغنما هو تاريخ واقع الإنسان العام المصرى الفلاح والعامل. ويؤمن أيضًا أن تاريخنا تشوبه فترات صمت أو فترات خرساء ؛ ومن ثم يتعين على المؤرخ أن يستنطقها. ولهذا كان الراحل طرفًا فاعلا بين مجموعة تعمل جاهده على الصعيد العالمى للمراجعة الفكرية وتصحيح ما ساد الغرب والشرق من فكر وثقافة ومعلومات تنبو عن الموضوعية وعن الحقيقة التاريخية.

ولندع الراحل يحدثنا بلسانه عن جهوده فى الترجمة موضحًا لماذا يترجم ؟ ولماذا اختار ؟ وما هى رسالته والهدف المنشود ؟

يقول فى مقدمته لترجمة كتاب " فراعنة من ؟ " تأليف رونالد مالكوم ريد : " الكتاب يسد فراغًا فى الدراسات التاريخية الخاصة بتاريخ العلوم وتاريخ علم المصريات على وجه الخصوص. ... وهو مجال غاب التأليف فيه عندنا..... ".

ويستطرد قائلاً : " والكتاب نفى لافتراءات عن علاقة المصرى بآثار بلاده وكشف لتزييف الثقافة الغربية لثقافة المصرى عن بلده وتاريخه. .... وهو رد اعتبار للتاريخ المصرى وللهوية المصرية. "

وتمثل المقدمة، كما هى العادة فى كل مقدماته لكتبه المترجمة دراسة صافية عن المؤلف وعن الموضوع والسياق التاريخى ودراسة تثرى الكتاب وتثرى القارئ.

ويقول رءوف فى مقدمة ترجمته لكتاب " دراسات فى تطور الرأسمالية " تأليف موريس ضب : " الكتاب مرجع مهم فى تطور الرأسمالية وضرورة لاغنى عنها للباحثين». "

ونلحظ هنا أن الراحل لم يكن ليضن بمجهوده سنوات لكى يثرى المكتبة العربية بما يراه مهمًا ولازمًا للوعى وللدور المصرى. ..... إذ عكف على إنجاز هذه الترجمة ثلاث سنوات متصلة وأدرك بحس العالم المفكر المناضل أن هذه النظرية أثارت جدلاً وحوارًا ممتداً لسنوات على الصعيد العالمى ؛ ولهذا حرص رءوف أن يذيل الكتاب بملحق يضم هذه الحوارات ليعيش القارى العربى مناخ المجالات الفكرية العالمية.

ويقول رءوف فى مقدمة ترجمته لكتاب " اللورد كرومر" تأليف روجر أوين : "مهمة المؤرخ الرئيسية هى بث الحياة فى الماضى قدر الإمكان وأن يكون ذلك باستلهام روح ومفاهيم الماضى موضوع الدراسة ؛ وعدم الحكم على الماضى بإسقاط الحاضر ومفاهيمه عليه. "

وحرى بنا أن نتأمل اختياراته للترجمة، ثم حرصه على تقديم دراسة نقدية تنويرية عن موضوع الكتاب وعن مؤلف الكتاب وعصره إيمانًا منه بأن السياق التاريخى هو من لحمة وسدى سلسلة أو منظومة الأحداث موضوع الدراسة.

ونراه، وهو الحريص على استكمال أوجه النقص فى حياتنا الفكرية، وسد الثغرات فى منظومتنا الثقافية، يقول فى صدر مقدمته لترجمة كتاب " ثقافة الطبقة الوسطى فى مصر العثمانية من القرن ١٦ إلى القرن ١٨ " تأليف الدكتورة نيللى حنا :

" تاريخ الثقافة مجال مهم من مجالات البحث التاريخى، تفتقر إليه المكتبة العربية تأليفًا وترجمة، سواء ما اتصل منه بتاريخنا القومى أو بتاريخ العلم، ومن هنا تأتى أهمية هذا الكتاب ليسد فراغاً فى المكتبة العربية.

ويستطرد قائلاً بما يعبر عن أسباب انتقائه الكتاب وضرورة ترجمته كواجب علمى ثقافى.

" تأليف الكتاب بحاجة إلى مؤلف واسع المعرفة بتطور المجتمع وحركته الثقافية وما جرى فى الإقليم حتى يقدم تحليلاً عميقًا. وتعود أهمية الكتاب إلى موضوعه وإلى مؤلفته نيللى حنا فهى واحدة من نخبة محدودة من المتخصصين فى تاريخ العصر العثمانى على المستوى الأكاديمى العالمى. وهى صاحبة مشروع علمى عاكفة عليه لأكثر من عقدين لتحرير الفكر المصرى من تأويلات ومزاعم الغرب على لسان المستشرقين فيما يتعلق بتاريخنا القومى. ويلقى الكتاب

الضوء على مكون مهم من مكونات الثقافة الوطنية فى ذلك العصر، يتمثل فى ثقافة الطبقة الوسطى القاهرية.

وتصل به النزاهة والموضوعية حداً لا يدانيه فيها كثيرون حين يصحح آراء سابقة له فى ضوء معلومات جديدة عليه. . ويعترف بخطأ سابق إذ يقول :

" ولا يخفى صاحب هذا القلم (رؤوف) أنه كان من بين من روجوا لفترة الركود والجمود فى العصر العثمانى متاثراً بنظرية التحديث تارة، وبمفهوم " مجتمع ما قبل الرأسمالية " الماركسى تارة أخرى، ثم بفترة " الاستبداد الشرقى " أحيانًا، أو بمفهوم " المجتمع الخراجى " عند سمير أمين أحيانًا أخرى. . وبذلك ضيعنا ثلاثة قرون كاملة من تاريخنا وراء أفكار نظرية غير محققة ".

ويسأل : " أليس ذلك يبرر ضرورة استرجاع حقيقة ما حدث لمصر فى خلال تلك القرون، وإعادة رسم الصورة التى كان عليها المجتمع المصرى اقتصاديًا واجتماعيًا وثقافيًا؟ هذا ما فعلته نيللى حنا فى مشروعها العلمى"

ويضيف موضحًا الهدف الذى ألف وترجم له : " ونظراً لما يمثله هذا الكتاب من أهمية بالغة فى دراسة تاريخنا القومى، وما يطرحه من قضايا منهجية، وما يثيره من آراء تتصل بالثقافة الوطنية ومفهوم النهضة، جاء حرصنا على تعريبه ليسد فراغًا فى المكتبة العربية، وليدفع باحثينا إلى تلبية دعوة المؤلفة إلى إعادة النظر فى تاريخ مجتمعنا ".

ونلاحظ أنه حين يترجم لا تصده عقد أو انحيازات أيديولوجية، بل الحكمة، أى المعرفة العلمية، ضالته الكاشفة عن مجهول فى حياتنا المعرفية. وتؤكد ترجماته، فى الشام مع مؤلفاته، إيمانه بأن التاريخ ليس رواية بل دراية عقلانية موظفة للمجتمع. وعقلانية التاريخ عنده تعنى أن التاريخ ليس الحدث المفرد، ولا الشخص المفرد، وليس أحداثًا تراكمت فى تتابع زمنى كما ترى المدرسة الوضعية أو النظرة الإمبريقية. وهو ضد اختزال التاريخ فى صورة فصل من كتاب يسرد أحداثًا عريضة. وهو أيضًا ضد حتمية التاريخ مستقلاً عن فعالية الإنسان / المجتمع. التاريخ سياق مفتوح لإبداع الإنسان / المجتمع الفاعل شريطة الوعى بالتاريخ. التاريخ عنده علم فاعلية الإنسان، ومنتج الفاعلية من فكر. الفعل الجمعى والفكر الجمعى هما نتاج وسيرورة زمانية والوعى بالتاريخ، الذى هو تمكين للإنسان، يستلزم التحليل وبيان الأسباب، والكشف عن السياق وعلاقات الترابط. ويغدو التاريخ تأسيسًا على هذا الفهم، أحد مكونات المنظومة الإيكولوجية للإنسان / المجتمع وقوانين الحركة مرحليًا.. وليس ثمة تاريخ مستقلاً بذاته سواء عن ماضيه أو عن علاقاته المترابطة محليًا وإقليميًا وعالميًا... التاريخ ملحمة إيكولوجية كونية بعيداً عن المطلقات التى تفضى إلى دمجاطيقية أى عقائدية جامدة فى الأحكام وفى السلوك. وعقلانية التاريخ تعنى فهم تاريخية المجتمع فى حركته وسكونه وبناء إطار متكامل عن المجتمع فى وحدته التاريخية الممتدة زمنًا وفى تفاعلاته وتناقضات نسيجه،

والكشف عن الشروط والظروف التاريخية والمهام والأدوار النابعة من هذه الظروف وتجنياتها فى الفرد والجماعات وعقلانية التاريخ سعى دؤوب جماعى لاستكمال الحلقات المفقودة فى التاريخ ومن ثم فى الوعى المجتمعى بالتاريخ أو بالهوية.

نجد هذا واضحًا فى كل ما كتب أو ترجم وفى علاقاته، وبذا نراه العالم الأكاديمى المثقف والمناضل صاحب الرسالة المنتمى والملتزم فى سياق واحد متجانس. وتمثل هذه الخصائص معًا جماع بنية عقل وجهد وجهاد العالم الأكاديمى الراحل الذى عرفناه (رؤوف عباس).

من شوامخ المترجمين

د. أحمد زكريا الشلق

فقدت مصر يوم الخميس ٢٦ من يونيو ٢٠٠٨ مؤرخًا كبيرًا ومفكرًا وطنيًا مخلصًا وشجاعًا هو الأستاذ الدكتور رءوف عباس حامد (٢٤ من أغسطس ١٩٣٩ – ٢٦ من يونيو ٢٠٠٨) ومؤرخنا الكبير أشهر من أن نعّرف به فهو علم من أعلام المؤرخين المصريين وصاحب مدرسة فى التاريخ الاجتماعى لمصر الحديثة، كما أن جوانب عطائه العلمى والثقافى أكبر من أن يحتويها هذا المقال الذى سوف يقتصر على جانب واحد من جوانب عطائه الثرى لهذا الوطن الذى أحبه وأعطاه جهده وعمره فى غير مزايدة، أو ما تشهد بذلك مؤلفاته وكتاباته ومقالاته التى تفخر بها المدرسة التاريخية المصرية.

وفى تقديرى أن رءوف عباس يعد واحدًا من شوامخ المترجمين فى مجال التاريخ الحديث والمعاصر حيث يتقن التدريس والكتابة

بالإنجليزية كأهلها تماماً ومن ثم كان يترجم عنها بسهولة ويسر تشهد بذلك الترجمات التى أثرى بها المكتبة التاريخية العربية والتى كشفت عندما جمعناها إلى بعضها عبر سنوات امتدت منذ أول كتاب ترجمة عام ١٩٧٧ وحتى آخر ما نشر له من ترجماته عام ٢٠٠٥.

وقد كشفت هذه الأعمال عن واحد من شوامخ المترجمين فى زماننا، فقد بلغت تسعة كتب ضخمة ضمت آلاف الصفحات، فضلاً عن مراجعة العديد من المؤلفات التاريخية وتقديمه لها بدراسات نقدية ضافية.

ولم يكتف رءوف عباس بما قدمه من مؤلفات ودراسات، وإنما كان يستغل فراغه من التأليف العلمى، ليقدم لنا ترجمة رصينة لأحد المؤلفات الإنجليزية فى مجال تخصصه لإيمانه بأن الترجمة عوامل نهضة الأمم وتواصلها مع الثقافة العالمية، فضلاً عن تقديمه خدمة جليلة للمثقفين والقراء الذين تعييهم الترجمة المتخصصة فى مجال التاريخ.

وفى ظنى أنه ليس كل من يتقن لغة أجنبية يستطيع تقديم ترجمة للمؤلفات العلمية المتخصصة فى هذا المجال أو ذاك، وأن العالم المتخصص فى أحد مجالات العلم أقدر من يستطيع ذلك. عندما يتقن هذه اللغة فيحسن تقدير أهمية ما يقدم على ترجمته كما ينفذ إلى عميق المعانى والمصطلحات فضلاً عن تمكنه من أن يقدم نظرة نقدية – باعتباره متخصصاً – فى تقديمه لها وهو ما يثرى التفكير العلمى باعتباره تفكيراً نقدياً.

فضلاً عن تحقيق التواصل العلمى مع ما ينتجه الآخرون مما يراكم المعرفة العلمية ويحثها ويجددها وينهض بالتخصص فى عصر المعرفة وتدفق المعلومات.

لقد كانت ترجمات رءوف عباس مثالاً يحتذى لجهد العالم المتخصص والمتابع لكل جديد فى مجال المتخصص والمتمكن ليس فقط فى مجال علمه بلغته القومية، وإنما فيما يستجد فيها من لغات الآخرين، إنه سليل مدرسة الطهطاوى ولطفى السيد ولكل هؤلاء المؤمنين بأن الترجمة هى من أهم أسباب نهضة الأمم ورقيها.

فلم يكد يتم رسالته للدكتوراة فى بداية الستينيات من القرن العشرين وحتى سافر إلى اليابان فى مهمة علمية، حتى وقع فى يده ترجمة إنجليزية لكتاب هاتشما عن هيروشيما والذى يؤرخ لتجربة قصف هيروشيما بالسلاح النووى الأمريكى وآثاره المدمرة فترجم هذه اليوميات مع شهادة الناجين، وأصدرها فى كتاب على نفقته الخاصة ١٩٧٥ وكان ذلك باكورة ترجماته.

وبعد ثلاث سنوات نشر ترجمة رصينة لكتاب موريس دوب " دراسات فى تطور الرأسمالية " (١٩٧٨) وهو من المراجع المهمة فى التاريخ الاقتصادى العالمى التى قدمت نظرية متكاملة للتطور الاقتصادى وقد استغرق نحو ثلاث سنوات فى ترجمته لأن المؤلف له طريقة خاصة فى عرض الأفكار واستنباط النتائج تحتاج عند ترجمتها إلى استيعاب وهضم تام ثم نقل أمين إلى العربية، وهذا ما نجح فيه رءوف عباس حتى جعل المؤلف وكأنه يخاطب القارئ العربى

بلسانه، ولم يكتفِ بترجمة النص الأصلى بل قام بترجمة الحوار العلمى الخصب الذى دار حول الكتاب.

كذلك قام رءوف عباس عام ١٩٨٣ بترجمة لكتاب الكسندر شولش عن الحركة الوطنية المصرية فى زمن الثورة العرابية والتى نشرت تحت عنوان " مصر للمصريين، أزمة مصر الاجتماعية والسياسية ١٨٧٨ – ١٨٨٢ " وهو أطروحة المؤلف التى نال بها درجة الدكتوراه فى ألمانيا وصدرت طبعته الإنجليزية عام ١٩٨١، فقدم مترجمًا مؤرخ عربى لحقبة مهمة لتاريخ مصر من الزوايا الاجتماعية والسياسية من خلال مصادر قلما تتاح لمؤرخ واحد، فضلاً عن موضوعية المؤلف التى لم تتوفر للكتاب الإنجليز والفرنسيين.

وفى عام ١٩٩٠ عهد إليه مركز دراسات الوحدة العربية بترجمته سفر ضخم ألفه الأستاذ شارل عيسوى تحت عنوان " التاريخ الاقتصادى للهلال الخصيب ١٨٠٠ – ١٩١٩ " وهو من الأعمال التأسيسية الرصينة فى التاريخ الاقتصادى لبلدان الهلال الخصيب فى القرن التاسع عشر (العراق وسوريا ولبنان وفلسطين والأردن) فى عصر تكالب المصالح الغربية على بلدان المنطقة، ويشكل هذا الكتاب حصيلة جهد المؤلف الذى يملك خبرة كبيرة فى التاريخ الاقتصادى للمنطقة، فجاء ليسد فراغًا فى المكتبة العربية هذا المجال للتاريخ.

وتتضح فيه روح العلم الراقية عندما يترجم دراسة زميلته الدكتورة/ نيللى حنا عن تجار القاهرة فى العصر العثمانى فينشر

الترجمة عام ١٩٧٧ بمقدمة إضافية تبلور قضية مهمة لا تزال تشغل بال المؤرخين المهتمين العصر العثمانى وهى قضية النهضة والحداثة فى هذا العصر فى ضوء المصادر الاستشراقية التى تجعل نهضة بلداتنا فى فلك المركزية الأوروبية، كما قدم رءوف عباس ترجمة لكتاب نيللى حنا التالى " ثقافة الطبقة الوسطى فى مصر العثمانية " بين القرنين ١٦ و١٨ تلك الترجمة التى صدرت عام ٢٠٠٣ مشيراً إلى أن تاريخ الثقافة من المجالات المهمة فى البحث التاريخى وهو ما تفتقر إليه المكتبة العربية تأليفًا وترجمة. فاعتبر هذا الكتاب رائداً فى مجاله، فضلاً عن أهميته فى دحض أفكار المدرسة الاستشراقية والتى ترى أن بلادنا كانت متخلفة حتى جاء الغرب مع مطلع القرن التاسع عشر لينتشلها من تخلفها ويضعها على طريق الحداثة والتقدم.

وأذكر أننى سألته صيف عام ٢٠٠١ ما الذى تترجم الآن ففاجأنى بقوله إنه يترجم مذكرات السير رونالد ستورس التى صدرت عام ١٩٣٧ وهو الذى عمل مستشارًا شرقيًا للسفارة البريطانية فى مصر والحاكم العسكرى للقدس، والذى لعب دوراً خطيراً فى توجيه صناعة القرار الخاص بالسياسة البريطانية فى المنطقة من خلال موقعه كخبير للشئون العربية وهذا الكتاب يعد مصدراً تاريخيًا مهمًا لا نحسب أن باحثًا فى الشئون العربية... لم يطلع عليه وأفاد منه ورغم ذلك لم يقدم أحد على ترجمته لضخامة حجمه (٦١١ صفحة) وصعوبة أسلوبه وحساسية ما يتناوله من

أمور، ولكن أستاذنا أقدم على ترجمته ونشره فى المشروع القومى للترجمة عام ٢٠٠٤ تحت عنوان " توجيهات بريطانية شرقية " وقدم له دراسة نقدية إضافية عن أهميته ودورستورز فى صنع السياسة البريطانية فى فترة من أخطر فترات تاريخ المشرق الغربى، فقدم للمكتبة العربية خدمة جليلة لترجمته هذا المصدر المهم من مصادر التاريخ الغربى المعاصر.

وفى عام ٢٠٠٥ صدرت له عن المشروع القومى للترجمة كتابان غاية فى الأهمية أولهما كتاب دونالدريد فراعنة من؟ دراسة فى علم الآثار والمتاحف والذى قدم دراسة جديدة فى تاريخ الثقافة المصرية، تؤرخ لعلم المصريات وصلته بالهيمنة الإمبرالية، ويدحض الفكرة التى روجتها الكتابات الغربية بشأن عدم أحقية المصريين بآثار بلادهم باعتبارهم لا يقدرون قيمتها، فيرصد المؤلف كتابات الجبرتى والطهطاوى وعلى مبارك عن الآثار وعن تاريخ مصر القديم موضحًا وعيهم بالأهمية التاريخية للآثار. .. إلى آخره، كما اهتم «ريد» بالتاريخ لرواد علم الآثار المصريين وهو ما يؤكد اهتمام المصريين بآثار بلادهم.

وثانيهما كتاب روجر أوين عن اللورد كرومر، الإمبريالى والحاكم الاستعمارى»، والذى صدر بالإنجليزية عام ٢٠٠٤ وتكمن أهمية الكتاب فى أنه يؤرخ لكرومر الذى كان الحاكم الحقيقى لمصر ١٨٨٣– ١٩٠٧ ورغم إشارة رءوف عباس إلى أهمية الكتاب ومصداقية المؤلف إلا أنه انتقد منهج الكاتب باعتباره سرديًا لا يتسم

بالتحليل، كما أنه أغفل ما أنتجه المؤرخون المصريون، مما حرمه من إبراز وجهة النظر المصرية فى سياسات كرومر. .

وكان آخر ما صدر لرءوف عباس من الترجمات ترجمته لكتاب بول كيندى «برلمان الإنسان، الأمم المتحدة: الماضى والحاضر والمستقبل» الذى صدر عقب رحيله عن دنيانا مباشرة، ضمن اصدارات المركز القومى للترجمة (عدد ١١٩٤) والذى قام له بمقدمة كاشفة أبانت عدم موضوعية الكاتب عندما يرى أن إسرائيل ضحية عدوان العرب وعنادهم، وإن اعترف المترجم بأهمية الدراسة وعمقها فى تشخيص أمراض الأمم المتحدة، ووضعه وصفة لعلاجها مستخلصة من أبحاث وتقارير الخبراء.

ومن المهم أن نلفت النظر إلى المقدمات النقدية التى قدم بها رءوف عباس ترجماته والتى تكشف عن النظرة العلمية العميقة التى تحسن تقدير قيمة العمل المترجم ولا تبدى خضوعًا من نوع ما لما يترجمه بخبرة أستاذ متميز ومثقف رفيع القدر، جزاه الله عما قدم لمواطنيه وأمته من علم نافع وخير عميم، وأنزله منازل الصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقًا.

الترجمة والمشروع الفكرى عند رءوف عباس

د. ناصر إبراهيم

قليل هم المفكرون الذين تتسم أعمالهم بالطابع الثقافى المركب والشامل، حيث نجدهم يخوضون الحقول المعرفية المتعددة والمختلفة، فيبدون فيها مبرزين، ويعزى هذا بداهة إلى قراءاتهم المتنوعة والموسوعية والتى تتابع وتلاحق كل جديد يصدر فى الأوساط الأكاديمية الدولية، سواء أكان له صلة مباشرة أو غير مباشرة بحقل التخصص، كما يعزى الأمر إلى قدرتهم الخلاَّقة على الإبداع التى حباهم الله بها، وقاموا باستغلالها الاستغلال النافع لكل من حولهم، أو اقترب منهم أو طرق بابهم من قريب أو بعيد. كان الدكتور رءوف عباس فى الحقيقة واحداً من هؤلاء المفكرين واسعى الاطلاع والتواصل مع الثقافات المختلفة شرقًا وغربًا، ساعدته فى ذلك بلا شك سفرياته المتعددة التى كان ينتهزها فى التقاط كل جديد ؛ إذ

كان حريصا على إثراء تخصصه بالجديد من المعارف وبصفة خاصة ما كان منها جدير بإحداث نقلة نوعية فى العمل البحثى الأكاديمى وإمداد المكتبة العربية بالمراجع الرصينة والمصادر الأجنبية التى تفتقر إليها. وهو إلى جانب ذلك كان لايضنى بعلمه وخبراته على كل من حوله ؛ إذ حباه الله بصفتين رائعتين، يعرفهما كل من اقترب منه: الأولى تتمثل فى حبه للعطاء والتفانى فى مد يد العون بشقيه المادى والإنسانى، والثانية يجسدها إيمانُه بأهمية التواصل بين الأجيال، واحتضانه لشباب الباحثين، وتذليل الصعاب أمامهم، وفتح الطريق لبروزهم على ساحة العمل الأكاديمى، إلى جانب حرصه على إثراءهم بكل جديد فى المنهج وفن ممارسة الكتابة. لقد كان حقًا نموذجًا رائعًا للأستاذ الأكاديمى المتميز والمثقف العضوى الذى لايفصل بين النظر والعمل.

والمعروف أن المشروع الفكرى لايتبلور فى ذهنية صاحبه مرة واحدة كما أنه لا ينطلق فيه وفق خطة معرفية يتم إعدادها سلفًا، وإنما يظل هناك ـ طوال الوقت ـ شاغل فكرى معين، يختلج النفس ويدفعها دفعًا فى طريق يؤدى مع الوقت والانجاز إلى تبلور الاتجاه وتلمس أبعاد المشروع، فيحدث آنذاك التنبه التلقائى لقيمة المشروع الذى يجسد الاتجاه الفكرى والمنهجى. ومن يطالع الانتاج الكبير الذى خلفه لنا راحلنا العظيم يتبين أن مشروعه الفكرى كان قائمًا فى الأساس على النهوض بالكتابة فى حقل التاريخ الأجتماعى الأقتصادى لمصر الحديثة والمعاصرة. وكانت الترجمة واحدة من

أدوات العمل فى هذا الاتجاه، إذ كان القصد منها تحقيق بغيتين، الأولى إتاحة المصادر والمجموعات الوثائقية الأجنبية باللغة العربية، وتمكين الباحث من الحصول عليها بكل سهولة ويسر، والثانية أن تساعد الترجمة فى إثراء الجانب المنهجى عبر تقديم رؤى وتفسيرات جديدة لمسارات التغيير والتطور التى تحفز على التفكير فى اختبار الأفكار والفرضيات الجديدة عند دراسة الظواهر التاريخية ذات الصلة بتاريخنا القومى.

إن من يلقى نظرة على قائمة الإنتاج المترجم للدكتور رءوف عباس يتبين له، وللوهلة الأولى، أهمية الدور الذى قام به فى هذا الحقل المعرفى الذى بدا فيه مبرزًا بدرجة ملحوظة، ولايعزى السبب بالطبع إلى طول قائمة مترجماته ومراجعاته لما عُرب وترجم من كتابات، والتى تمثل فى مجملها مشروعًا قائمًا بذاته، يطوق كل محترف للترجمة إلى إنجازه، وإنما يعزى السبب فى الحقيقة إلى نوعية ما أقبل على تعريبه ومراجعته : فالرجل كان له فلسفة خاصة فى الاختيار تتماشى أحيانًا وتتقاطع أحيانًا أخرى مع توجهاته الفكرية ومشروعه العلمى الكبير الذى أنفق فى إنجازه أكثر من أربعة عقود: فهو لم يكن يترجم ما يتفق مع توجهاته الفكرية بالضرورة، وإنما تجاوز ذلك بروح علمية محايدة إلى الترجمة للكتابات الأخرى، والتى خلق من خلال ظرفية الترجمة فرصة للمساجلة الموضوعية والتفنيد المنهجى للأطر النظرية التى روجت لها تلك الكتابات، وذلك عبر المقدمات الضافية القيمة التى كان يكتبها

لهذه الترجمات والتى تبرز ملكة النقد عنده وفن المراجعة الموضوعية.

فى كلمة موجزة كان راحلنا العزيز يتخير من الكتابات ما هو مطلوب بشدة للحظة الظرفية التى تمر بها المدرسة الفكرية المصرية والعربية. يعرف معرفة الطبيب المتمرس الخبير بمكمن الداء وأصل العلل التى أصابت الكتابة بالجمود المنهجى والفكرى، فينهض لتشخيصها ومعالجتها بكل ما توافر لديه من وسائل وجهد، وكانت الترجمة بلا شك إحدى تلك الوسائل الفاعلة فى التوعية بضرورة تطوير أدواتنا المعرفية واختزال المسافات الزمنية الفارقة بيننا وبين الآخر الذى أحرز تقدمًا ملموسًا فى المناهج وأنماط الكتابة، وبصفة خاصة ما كان يتعلق منها بميدان الكتابة التاريخية. وعلى ذلك فالحقيقة الأولى: أن اختياراته لم تكن من قبيل الصدفة أو مجرد كتب كانت تعرض عليه فيقبل على تعريبها أو مراجعتها؛ وإنما كان وراءها فلسفة خاصة لها علاقة عضوية بمشروعه الفكرى الكبير.

فى هذا السياق تتحدد الإشكالية التى أود معالجتها فى هذه الورقة، يجملها التساءل حول الأسس التى استندت إليها فلسفته فى الاختيار وتحليل أبعادها ومراميها وعلاقتها بمشروعه الفكرى. وتتجه بنا نقطة البدء إلى تحديد المجالات التى شملتها الكتب التى ترجمها أو قام بمراجعة ترجمتها، ثم نحلل بعدها الرابط الفكرى بين تلك المجالات، وصولا إلى تحديد الأسس التى قامت عليها فلسفته فى الاختيار وكشف مغزاها ودلالتها.

وفى الواقع يمكن تمييز ثلاثة مجالات رئيسة لمعظم تعريباته وترجماته وما راجعه من ترجمات، وهى على النحو التالى:

١ – كتب تتناول موضوعات يندر فيها مجال التأليف ويتهيب الكثيرون الخوض فى دراستها.

٢ – كتب تثير قضايا منهجية وتعالج وجهات نظر خلافية حول تفسير مسار تطور المجتمعات.

٣ – كتب مصدرية تتضمن وثائق وتقارير أجنبية.

المجال الأول: الترجمات المعالجة لمجالات تندر فيها الكتابة والتأليف فى مصر والعالم العربى.

ترجم الدكتور رءوف كتابات تناولت موضوعات جديدة تفتقر المكتبة العربية إليها وتعانى فراغًا معرفيًا بشأنها، وتجف أقلام المؤرخين عن تناولها بالرغم من أهميتها البالغة، وكان يرمى من وراء ذلك إلى الكشف عن أهمية تلك الموضوعات، والتحفيز على الخوض فى مجالاتها البحثية التى ندر التأليف فيها إن لم يكن قد غاب تمامًا. ويمكن تحدى دتلك الكتابات بثلاثة مجالات وهى: **مجال التاريخ الثقافى، مجال التاريخ المقارن، ومجال "التاريخ الاستشرافى".**

وفى هذا السياق تأتى اهتماماته باختيار الكتابات التى تخدم هذه المجالات : فبالنسبة للتاريخ الثقافى ترجم كتابين متميزين، الأول " ثقافة الطبقة الوسطى فى مصر العثمانية " للأستاذة الجليلة نللى حنا، والثانى" فراعنة من ؟ علم الآثار والمتاحف والهوية القومية

المصرية" لدونالد ريد. وهذان الكتابان يقدمان تاريخ مصر الثقافى من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر ومشارف القرن العشرين، ويطرحان تساءولات عديدة تفتح الطريق أمام الباحثين للمزيد من الدراسات الاستكشافية فى التراث الثقافى والاجتماعى المصرى بين العصر العثمانى وعصر النهضة مرورًا بالتحولات الاقتصادية والسياسية فى القرن التاسع عشر. كما أن الكتابين يستخدمان منهجين مختلفين فى تناول موضوع تاريخ مصر الثقافى، وهو ما يضفى أهمية خاصة على تعدد المناهج فى هذا الحقل من الدراسات، الأمر الذى يثرى منهجية البحث التاريخى فى هذا النمط من الكتابات.

والجدير بالذكر أنه هو نفسه قد أسهم فى هذا الاتجاه من خلال إعداده لدراسة نشرها بالإنجليزية (فى نوفمبر ١٩٩٠) تحت عنوان" التنوير فى مصر واليابان، دراسة مقارنة فى فكر رفاعة الطهطاوى وفوكوزاوا يوكيتشى" والتى ترجمها لقراء العربية بنفسه (فى عام ٢٠٠٠)، وهو كتاب يعد مرجعًا أساسيًا فى دراسة التطور الفكرى والثقافى فى كل من مصر واليابان فى القرن التاسع عشر. بيد أن الدلالة الأهم هنا أن هذا الكتاب مثل فى حد ذاته محاولة جادة وجديدة من نوعها فى **مجال التاريخ المقارن**، وهو المجال البكر الجديد الذى خبر الدكتور رءوف عباس منهجيته وأدوات البحث فيه من خلال رحلته العلمية الفريدة باليابان : فقد نبعت فكرة الكتاب من خلال مناقشاته مع الأساتذة اليابانيين المهتمين بمقارنة التجربتين

المصرية واليابانية الحديثة، وأولى اليابانيون اهتمامهم بتشجيعه على إنجاز فكرته، حتى تبلورت الدراسة فى شكلها الكامل، ولاقت عقب نشرها اهتمامًا واسعًا فى الأوساط الأكاديمية اليابانية. وبيَّن الدكتور رءوف فى الطبعة العربية لهذا الكتاب أن التاريخ الاجتماعى المقارن ما زال بكرًا، وفى حاجة إلى توسيع دائرة الاهتمام به والوعى بأدواته واختبارها وضبطها على ضوء واقع العمليات التاريخية محل المقاربة المنهجية، موضحًا أهمية وجدوى هذا النمط الكتابى فى لفت النظر إلى ما لم يكن من الممكن رصده بدون تفعيل منهج المقاربات أوالقراءات المتوازية.

أما المجال الثالث الذى تغيب فيه الكتابات العربية تمامًا فهو المتعلق بـ " **التاريخ الاستشرافى**": فقد قدم رءوف عباس أكثر من مقال حول هذا النمط من الكتابة، مبشرًا بأهميته كمجال جديد فى الكتابة التاريخية، وداعيًا المؤرخين فى عالمنا العربى إلى عدم تهيب ممارسة الكتابة فى هذا المجال. وكان هذا هو السبب الذى دفعه إلى اختيار نماذج من الكتابات الغربية المتطورة فى هذا المجال: فاختار كتابات بول كينيدى المؤرخ والمناظر الأكثر شهرة فى "علم الاستشراف" وخاصة بعد أن تحققت نبؤته بسقوط الاتحاد السوفيتى بعد عامين فقط من صدور كتابه:" قيام وسقوط القوى الكبرى" الذى صدر فى عام١٩٨٨، والذى ترجم إلى ٢٣ لغة، وبيعت من طبعته الإنجليزية مليونا نسخة. من هنا كان اختياره لترجمة كتاب: "برلمان الإنسان " لهذا المؤلف ـ وهو الكتاب الذى خرجت

ترجمته العربية للنور منذ بضعة أيام ولم يشأ القدر أن يراه أستاذنا الراحل - : فالكتاب يقدم رؤية استطلاعية للتطورات والتحولات فى موازين القوى العالمية والتى يتوقع أن تؤثر على دور الأمم المتحدة فى خلال الخمسين سنة القادمة وتحديداً حتى عام ٢٠٤٥ العام الذى سيشهد مرور مائة عام على المؤسسة، كما يقدم الكتاب تصور لاصلاح المنظمة وتفعيل دورها بما يتوافق مع الظروف الدولية المتغيرة على مدار الفترة القادمة حتى عام ٢٠٤٥.

وللسبب نفسه قام بمراجعة كتاب :" الشرق الأوسط المعاصر- محاولة للفهم" الذى صدر عام ٢٠٠٣، والذى يقدم نموذجًا عمليًا لاستشراف التحولات التى يمكن أن يرجح حدوثها فى منطقة الشرق الأوسط من خلال العقود الأولى من القرن الحادى والعشرين، وذلك استناداً إلى التناول التحليلى لآليات ودوافع التغيير فى منطقة الشرق الأوسط، وتفعيل المراجعات النقدية لمحصلة التطورات التاريخية فى حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وربطًا بالتطورات الجارية على أرض الواقع منذ عقد التسعينيات، وصولا إلى استخلاص نتائج مرجح حدوثها، تفيد فى تقديم تصور للمستقبل الذى ينتظر هذه المنطقة ا?ستراتيجية من العالم.

والدلالة الأهم فى هذا الصدد أن د. عباس كان يستغل المقدمات التى يكتبها لمثل هذه الترجمات فى توضيح الأسس المنهجية التى قام عليها علم " الاستشراف التاريخى"، حتى يثير النقاش حول جدواه وأهميته، ويزلل أمر الخوض فى ممارسته، وصولاً - على نحو ما كان

يأمل - إلى أن يكون لنا إسهاماتٌ علميةٌ جادة لاتقل عما ينتجه الغرب من دراسات استشرافية للمنطقة التى نعيش فيها، فيسبقنا فى استطلاع أحوالنا ويتمكن من استمراريته فى رسم سياسات الهيمنة على مقدراتنا المادية والبشرية؛ أى إن الأمر جد خطير، ولم تعد الدراسة فى هذا الميدان نوعًا من الترف الأكاديمى، وإنما هى بحق نوع من الدراسات الاستراتيجية المهمة والخطيرة.

وعلى هذا النحو كانت فلسفة اختياراته للترجمة فى هذه المجالات الثلاثة (التاريخ الثقافى، والتاريخ الاجتماعى المقارن، والتاريخ الاستشرافى) لها علاقة عضوية بمراميه فى تطوير شكل وأنماط الكتابة التاريخية عندنا من خلال الإسهام فى إثراء الثقافة المنهجية المطلوبة فى تكوين المؤرخ العربى.

المجال الثانى: الترجمات والمراجعات المعالجة لقضايا المنهج والتى تثير قضايا خلافية:

اهتم الدكتور رءوف فى اختياراته بالكتابات التى تثير جدلا منهجيا ومعرفيا ونظريًا: فمن ذلك ترجمته لكتابات كل من بيتر جران ونيللى حنا وفرد لوسون وروجر أوين، فقام بمراجعة كتابين مهمين للمؤرخ المرموق بيتر جران:" الجذور الإسلامية للرأسمالية فى مصر(١٩٩٢)، و"ما بعد المركزية الأوربية"(١٩٩٨)، وهما الكتابان اللذان أثارا جدلاً واسعًا بين المتخصصين على الصعيد العالمى والإقليمى، حيث قدم بيتر جران طرحًا نقديًا لنظرية "المركزية الأوربية "، محاولاً إيجاد تفسير لحركة المجتمع المصرى والعربى خارج إطار

المقومات الاستشراقية، واعتماداً على طرح نظرى مغاير لنظرية التحديث الأوربية، حيث قدم اختباراً لنظرية أنطونيو جرامشى المفكر الماركسى الإيطالى، وخاصة فى كتابه "ما بعد المركزية الأوربية"، وهو ما رأه د. عباس نموذجًا مهمًا، يفتح الباب لجدل ثرى حول النظرية وأسلوب تطبيقها، والمحاذير التى يتعين الإلتفات إليها إزاء قولبة التاريخ فى الأطر النظرية الصارمة. ومن هذا المنطلق جاءت مراجعته لكتاب فرد لوسون :"الأصول الاجتماعية للسياسة التوسعية لمصر فى عهد محمد على" (٢٠٠٥) والتى كتب لها د. رءوف مقدمةً، أحسب أنها تمثل نموذجًا مهمًا لفن المراجعة النقدية الموضوعية، ودون الدخول فى التفاصيل، حلل د. رءوف مسار تجربة التوسعات التى قام بها محمد على ودوافعها الاقتصادية والسياسية فى سياق يتناقض تمامًا مع رؤية الكتاب المترجم، حيث اعتمد لوسون على تناول الظاهرة فى ضوء "نظرية التوسع الخارجى الإمبريالى" التى وإن كانت تتماشى مع السياسات التوسعية التى شهدتها أوربا فى العصر الإمبريالى، إلا أنها لاتنطبق على مصر. كان هذا فى الحقيقة نقداً ثمينًا لخطورة الانسياق وراء الإطار النظرى على حساب الواقع التاريخى والخصوصيات التى تتمايز بها المجتمعات بعضها عن البعض.

و فى خط متواز جاءت ترجمته لكتابى " تجار القاهرة فى العصر العثمانى"(١٩٩٧)، "ثقافة الطبقة الوسطى فى مصر العثمانية"(٢٠٠٣) للأستاذة الجليلة نيللى حنا: وهما الكتابان اللذان

قدما طرحًا نقديًا موازيًا لما طرحه بيتر جران، وإن كانت حنا قد استخدمت منهجًا مختلفًا، حاولت من خلاله مراجعة الأفكار والمنطلقات النظرية السائدة عن الحقبة العثمانية: مثل نظرية التطور والتخلف، ونظرية المجتمع التقليدى والتحديث، ونظرية المركز والأطراف، وفكرة "الاستبداد الشرقى"، واستطاعت أن تزلزل فكرة " التدهور والركود" وأن تدحض إلى جانب ذلك الأفكار الاستشراقية المتصلة بالثقافة، مبينة أن هناك مكون مهم من مكونات الثقافة الوطنية فى ذلك العصر، يتمثل فى "ثقافة الطبقة الوسطى القاهرية".

كذلك ترجمته لكتاب موريس دوب " دراسات فى تطور الرأسمالية" وهو الكتاب الذى قدم نظرية مهمة فى نقد الماركسية، حيث قدم تفسيراً لاستمرار النظام الاقطاعى رغم التحول الظاهر نحو الرأسمالية، وأن فكرة الصراع الطبقى لاتظهر لها أهمية فى مثل هذا التحول الذى يتخذ نمطًا تدريجيًا، تختلف ايقاعاته بحسب ظروف كل مجتمع. ولا شك أن مثل هذه الكتابات التى تثير قضايا خلافية فى التفسير والنقد المنهجيين قد أثرت حقل التخصص بالممارسات الجديدة فى كتابة تاريخ مصر الحديث، ومنها يتضح أن الترجمة كانت جزءًا من مشروعه الفكرى ،وخاصة أن وراءها هدف تكوينى للجيل الجديد من شباب الباحثين الذى كان حريصًا على تمكينه من الإحاطة المعرفية المبكرة بكل جديد يصدر فى الأوساط العلمية الدولية والإقليمية، دون أن يتبع فى ذلك أسلوبًا انتقائيًا يقوم على تخير الكتابات المنصفة لنا، فالأهمية عنده ـ رحمه الله ـ أن

نتعرف على أنماط وأشكال الكتابة ومناهجها المتعددة، وأن نطرحها جميعا للنقاش والدراسة، فهى مفيدة للغاية فى تطوير طريقتنا فى التفكير وفى التناول المنهجى نفسه، وذلك بقطع النظر عما تغص به من حقائق مغلوطة أوانحيازات ايديولوجية غير مبررة.

المجال الثالث: ترجمة المصادر المنشورة والمجموعات الوثائقية الأجنبية غير المنشورة المتعلقة بتاريخ مصر المعاصر:

والحقيقة أن رءوف عباس كان يستشعر الخطر من صعوبة كتابة تجربة مصر التاريخية فى القرن العشرين دون الاعتماد على المجموعات الأرشيفية الأصيلة؛ وذلك بسبب تبعثر الوثائق هنا وهناك، وعدم وجود حصر دقيق لها، وقلة ما يوجد منها بأرشيف دار الوثائق القومية، هذا فضلا عن انغلاق أرشيف وزارة الخارجية المصرية، وكذلك أرشيف وزارة الداخلية المغلق تماماً أمام الباحثين منذ أنشىء البوليس السياسى عام ١٩١٠ وحتى الآن، ومن هنا أخذ على عاتقه ضرورة معالجة هذا القصور والنقص فى الوثائق المعاصرة من خلال الأرشيفات الأجنبية التى تسمح بتسهيلات عديدة للباحثين، فكان يقوم بتصوير المجموعات الوثائقية المهمة، ثم يعكف على ترجمتها، مع عمل دراسة تحليلية توضح أهميتها التاريخية. ويمكن تمييز ثلاث مجموعات تمثل رصيداً متميزًا فى الترجمة فى مجال تخصص الدقيق، وهى:

١- مجموعة تقارير المندوب السامى البريطانى إلى وزارة الخارجية البريطانية حول الطبقة العمالية فى مصر بين عامى

(١٩٢٤ - ١٩٣٧) وهى المجموعة التى نشرها فى سنة ١٩٧٥ تحت عنوان:" الحركة العمالية المصرية فى ضوء الوثائق البريطانية "(وتجاوزت ٣٠٠ صفحة).

٢- مجموعة تقارير السفارة الأمريكية بالقاهرة ووزارة الخاجية الأمريكية عن الشخصيات المختلفة التى كانت تتحسب للتعامل معها إذا ما أتاحت الظروف دخول مصر فى مجال نفوذ الولايات المتحدة الأمريكية بدلا من الإنجليز (وتغطى سنوات حاسمة ومهمة ١٩٥١- ١٩٥٣) ونشرها فى سنة ٢٠٠٢ تحت عنوان:" شخصيات مصرية فى عيون أمريكية".

٣- مجموعة أوراق هنرى كورييل التى راجع ترجمتها العربية وقدم لها دراسة تحليلية عميقة، باعتبارها من المجموعات الوثائقية النادرة عن الحركة الشيوعية المصرية التى نجت من الضياع وفلتت من رقابة البوليس المصرى، وظلت محفوظة فى باريس وما تزال، وهى وثائق المجموعة التى أطلقت على نفسها " مجموعة روما للحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى (حدتو)".

واللافت للنظر أنه حين كان لايسعفه الوقت بسبب انشغالاته العلمية المتعددة لترجمة ما يقع فى يده من تلك الوثائق الأجنبية، كان يقوم بكتابة مقالات عنها تستوفى مضامينها، مع توضيح الإضافة الجديدة التى تقدمها وما يمكن أن يفاد منها فى تفسير الظواهر التاريخية المتعلقة بالتاريخ المعاصر، مع نشر ترجمة لبعض التقارير والمحاضر المهمة، كملاحق لتلك المقالات : من ذلك مقالاته عن :"ثورة

يوليو فى الأرشيف البريطانى" والتى نشر منها سبع مقالات مهمة للغاية فى مجلة الأهرام الاقتصادى، وكذا مجلة المصور حين كانت تحتفل بمرور خمسين عاما على قيام ثورة يوليو.

يضاف إلى ما تقدم قيامه بترجمة ومراجعة المصادر الوثائقية المنشورة ذات الصلة بالتاريخ الحديث والمعاصر: كترجمته لكتاب ستورس:" توجهات بريطانية شرقية " ومراجعته لكتاب " نابوليون ومحمد على ١٨٠٧ ـ ١٨١٤) مراسلات قناصل فرنسا فى مصر، إلى جانب ترجماته لبعض أدبيات الرحالة البريطانيين فى القرن التاسع عشر الذين زاروا الجزيرة العربية.

****

وبعد، فإن القائمة تطول، وكلها نماذج تبين مدى احترافه فن الترجمة رغم أنها كانت على هامش نشاطه الأكاديمى، وأن المجالات الثلاثة التى تضمنت كل ترجماته كانت بالفعل من أجل خدمة مشروعه العلمى فى كتابة تاريخنا القومى بالصورة التى تكشف حقيقة التجربة التاريخية والتطورات التى قطعتها مصر فى مسيرتها فى الحقبة الحديثة والمعاصرة، وأحسب أن المتخصصين يدركون مدى أهمية الدور المتميز الذى أداه باقتدار والذى يوضح مدى أصالة وشدة إنتماء هذا الرجل إلى حقل تخصصه الذى حاول النهوض به بدرجة ملحوظة سيسجلها له كل من سيدرس حركة الكتابة التاريخية فى مصر المعاصرة.

رحم الله أستاذنا الغالى بما قدم وأعطى من فيض علمه ووقته

وجهده، وتحية تقدير وإجلال لكل إسهام فعال أسهم به فى تكوين شباب هذا الجيل من الباحثين الذين عاهدوا الله أن يواصلوا مسيرته، وأن يتمثلوا أخلاقياته العلمية الأصيلة، وأن يحافظوا على تراثه الأصيل، وأن يستضيئوا بخبراته وآرائه التى سجلها فى كتبه ومؤلفاته وذاكرتنا. رحم الله الفقيد الغالى وأفرغ علينا صبراً على فراقه العصيب، حتى نلقاه فى دار الحق والخلود.

استقلال الجامعة

د.إيمان يحيى

عندما نتحدث عن المرحوم الدكتور رءوف عباس و استقلال الجامعة والحركة المطالبة به (٩ مارس)، يتبادر إلى الذهن على الفور ما رواه الراحل فى سيرته الذاتية مشيناها خطى" عن ذكرياته الجامعية كأستاذ وطالب. ولعل الفصل الذى كتبة تحت عنوان " تحت القبة وهم " هو أكثر ما كتب بشأن أحوال الجامعة المصرية عمقًا وصراحة. يعزى الدكتور رءوف عباس ضياع استقلال الجامعة إلى عوامل عدة، لعل أهمها هو استوزار أساتذتها وتدخل السلطة السياسية فى شئونها. أى أن أهل الجامعة - من ناحيتهم - هم مسئولون عما حدث لها، عندما زاغت أبصارهم وتطلعوا إلى رضا الحاكم للحصول على المناصب العامة. من ضمن عوامل التدهور الذى أصابت الجامعة المصرية يكشف د. رءوف عباس عن انتشار

الواسطة والمحسوبية فى تعيين المعيدين وأعضاء هيئة التدريس. لا يألَ المؤرخ جهداً فى أن يفضح " المستور" من فساد جامعى. لعبة "الصناديق الخاصة" وتوزيع المغانم على مستويات الإدارة الجامعية والتداخلات الأمنية الفاضحة المستترة فى الشئون الجامعية. عشرات الوقائع والمعارك التى خاضها نجدها فى سيرته الذاتية.

ولعل الراحل " رءوف عباس " قد أعطى مثلاً رائعًا بانطباق مواقفه العلمية بما كان يدعو له من استقلال الجامعة. كان الرجل دائما فى كافة مواقع عمله الجامعية مثلاً رائعًا لأستاذ الجامعة المعتد بذاته و بجامعته. نرى ذلك فى مواقفه أيام حملة سبتمبر عام٨١ وحين حاول البعض استغلاله كأستاذ لمعاونة ابنة رئيس الجمهورية السابق فى إعداد رسالة لها بالجامعة الأمريكية، وحين وقف ضد التعصب الدينى والطائفى فى اختيار أعضاء هيئة التدريس بكليته.

لقد عثرت بالمصادفة على وثيقة نادرة اشترك رءوف عباس فى صياغتها، وتعبر عن مدى إيمان الرجل باستقلال الجامعة المصرية. فى إبريل ومايو عام ٨٤ قامت لجنة من أساتذة كلية آداب القاهرة بإعداد مشروع لتعديلات قانون تنظيم الجامعات ولائحته التنفيذية. كانت اللجنة مكونة من الدكاترة والأساتذة: عبد المحسن طه وعبد المعطى شعراوى ورءوف عباس وكمال رضوان وليلى عنان ونصر حامد أبو زيد وشاكر سليمان وعماد بدر الدين أبو غازى وكان الدكتور زين العابدين درويش أمينًا والدكتور مصطفى سويف مقرراً لها.

تلك اللجنة وضعت وثيقة فى غاية الخطورة مازال المهتمين بالشأن

الجامعى يرجعون إليها. القانون الذى وضعته تلك اللجنة توخى ترسيخ مفهوم استقلال الجامعة الفعلى وتأصيل قاعدة الانتخاب الحر المباشر لقياداتها وإعطاء صلاحيات واسعة للمجالس الجامعية وتوفير نوع من التمثيل النسبى للوظائف الجامعية المعاونة فى تلك المجالس. وفى مجال الأوضاع الطلابية كان تأكيد اللجنة على وجوب العودة إلى لائحة ٧٦ الطلابية وإلغاء لائحة ٧٩ والتأكيد على مبدأ مجانية التعليم الجامعى ورفض مبدأ الاستثناءات فى القبول الجامعى. كانت تلك التعديلات والاقتراحات التى قامت بها، هى من أكثر المشروعات جدية لإرساء بنية قانونية لاستقلال الجامعة وضمان حريتها الأكاديمية. ولعل اهتمام المؤرخ بأحوال جامعته، تتضح عندما قام بتأليف كتاب " تاريخ جامعة القاهرة "، والذى صدرت منه عدة طبعات. يولى رءوف عباس أهمية خاصة لما حدث للجامعة بعد ثورة ٥٢، عندما بدأت ما سمى بحملة التطهير داخل الجامعة، وأيد تلك الحملة جماعة سميت بجماعة " المدرسين الأحرار ". ورغم انحياز " رءوف عباس " السياسى والاجتماعى والوطنى لمشروع يوليو، إلا انه كمؤرخ وأستاذ جامعى يجد نفسه فى موقف الناقد والمعارض لسياساتها التى أودت باستقلال الجامعة والحريات الجامعية والأكاديمية. وهنا تبرز الأمانة العلمية والاستقامة الخلقية للأستاذ الجامعى والمؤرخ رءوف عباس.

ويبقى مجهود رءوف عباس فى تأسيس وتدعيم نشاط مجموعة العمل من أجل استقلال الجامعة (٩ مارس) هو الممارسة العملية

والنظرية له فى السنوات الأخيرة من أجل استقلال الجامعة. ولعل اختيار رمز المجموعة فى تاريخ محدد هو «٩ مارس» والذى يذكرنا بحادثة ٩ مارس ١٩٣٢ حين قام أسماعيل صدقى بنقل طه حسين من عمادة كلية الآداب إلى وزارة المعارف فتضامن معه أستاذ الأجيال أول رئيس للجامعة المصرية أحمد لطفى السيد ليستقيل.

ومنذ اللحظة الأولى شارك رءوف عباس فى نشاطات جماعة ٩ مارس و لم يبخل بجهده. كانت مشاركاته فى احتفاليات ٩ مارس التى أقامتها المجموعة فى تلك الذكرى عديدة. . مرة حين ألقى الضوء فى محاضرة على مفهوم استقلال الجامعة ودلالة الحادث التاريخية، ومرة أخرى عندما عرض لكتابه " مشيناها خطى ". ثم جاءت آخر وأنفس مشاركاته عندما وضع مخططًا لجماعة ٩ مارس للاحتفال بمئوية الجامعة المصرية عبر عقد ثلاثة ورش عمل أو حلقات نقاش موسعة حول " مستقبل البحث العلمى فى مصر "، ومستقبل التعليم الجامعى، ودور الجامعة فى المجتمع. وقام الدكتور رءوف عباس بتحرير كتاب عن " الجامعة المصرية والمجتمع فى مائة عام " صدر خصيصًا بهذه المناسبة ضمنه ثلاثة فصول من تأليفه الشخصى. وقد شارك فى تأليفه كل من الدكتور عبد المنعم الجميعى والدكتور محمد أبو الغار والدكتور سيد البحراوى والدكتور نصر حامد أبو زيد وتضمن الكتاب شهادات قيمة للدكتور فوزى منصور والدكتور نادر فرجانى والدكتورة أمينة رشيد. ولعلى كنت شاهد عيان على مدى إصرار الراحل على القيام بدوره فى ٩ مارس رغم

آلام المرض المبرحة. أصر على المشاركة فى ورشة " مستقبل البحث العلمى " رغم الآلام الرهيبة التى عاناها، وفى ٩ مارس الماضى فى الاحتفالية التى أقيمت أصر على الحضور ليقدم ويعرض الكتاب الذى حرره بهذه المناسبة. إلا أنه لم يستطيع سوى حضور الجلسة الأولى وعندما فاجأه الألم الشديد لم يجد بدًا فاعتذر عن تقديم اسهامه التى كان مقررًا لها الجلسة الثانية وأصر على الإياب إلى منزله دون مرافقة.

لم يكتف رءوف عباس بتأليف الكتاب بل شارك فى تمويل إصداره وأشرف على إخراجه وطباعته شخصيًا، رغم المرض العضال.

لم يكن الدكتور رءوف عباس بعيداً فى برج عاجى، يقطنه بعض الأكاديميين عن مجتمعه. فى العقدين الأخيرين كان مشاركًا بفعالية فى الحياة العامة عبر مقالاته فى الصحافة، والتى تعرض فيها بكل جرأة لمشكلات الوطن والجامعة.كان عضواً نشطًا فى جماعة ٩ من مارس وكان عضواً مسهمًا ومن أول الموقعين على البيان التأسيسى لحركة "كفاية". وكان مؤسسًا لفعالية ثقافية دعوبة هى صالون النديم للفكر العربى، التى ظل يخطط لنشاطها وندواتها حتى اللحظة الأخيرة من حياته.

رحم الله أستاذنا الكبير الدكتور رءوف عباس، وجعله دائمًا قدوة ومثالاً حيًا لمحبيه وتلامذته ومريديه، فقد كان رجلاً جمع بين العلم والعمل، وبين الجامعة والوطن. .رحمه الله رحمة واسعة.

السيرة العلمية
للدكتور رءوف عباس حامد

*** المؤهلات :**

- دكتوراة فى التاريخ الحديث، جامعة عين شمس، يناير ١٩٧١ مرتبة الشرف الأولى مع التوصية بالطبع.
- ماجستير فى التاريخ الحديث، جامعة عين شمس، نوفمبر ١٩٦٦ بتقدير ممتاز مع التوصية بالطبع.
- درجة الليسانس فى التاريخ، جامعة عين شمس، مايو ١٩٦١ بتقدير جيد.

*** التدرج الوظيفى :**

- وكيل كلية الآداب جامعة القاهرة للدراسات العليا والبحوث من أول سبتمبر ١٩٩٦.
- رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٨٢ – ١٩٨٨.

- أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب جامعة القاهرة منذ ٣٠ من ديسمبر ١٩٨١.
- أستاذ مساعد التاريخ الحديث بكلية الآداب جامعة القاهرة من يناير ١٩٧٧ إلى ديسمبر ١٩٨١.
- مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب جامعة القاهرة (يونيو ١٩٧١ – آخر ديسمبر ١٩٧٦) .

*** النشاط الأكاديمى :**

- أستاذ زائر بجامعات طوكيو (اليابان) ، جامعة قطر، جامعة الإمارات العربية، جامعة السوربون (باريس ٤)، جامعات كيبل، وإسن، وهامبورج، وفرايبورج (ألمانيا) ، جامعة كاليفورنيا، جامعة ستانفورد جامعة جورجيا (أمريكا) ، الجامعة الأمريكية بالقاهرة.
- عضو لجنة التاريخ والآثار، المجلس الأعلى للثقافة.
- عضو اللجنة العلمية لوظائف التاريخ، المجلس الأعلى للجامعات.
- رئيس وحدة الدراسات التاريخية بمركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام منذ فبراير ١٩٨٠ .
- رئيس مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية (١٩٩٩–٢٠٠٨).

*** النشاط العام :**

- عضو اللجنة المصرية للتضامن الأسيوى الأفريقى.
- عضو الجمعية القومية للوحدة الوطنية.

*** مظاهر التقدير :**

- حامل وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى، منح من رئاسة الجمهورية، مصر فبراير ١٩٨٣.
- عضو الشرف، جمعية دراسات الشرق الأوسط بأمريكا الشمالية (نوفمبر ١٩٩٠).
- جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية عام ١٩٩٩.

*** أهم المؤلفات باللغة العربية :**

- الحركة العمالية فى مصر (القاهرة ١٩٦٨).
- النظام الاجتماعى فى مصر فى ظل الملكيات الكبيرة (القاهرة ١٩٧٣).
- مذكرات محمد فريد، المجلد الأول، دراسة وتحقيق (القاهرة ١٩٧٥).
- الحركة العمالية المصرية فى ضوء الوثائق البريطانية ١٩٢٤ – ١٩٣٧، القاهرة ١٩٧٧.
- المجتمع اليابانى فى عصر مايجى (القاهرة ١٩٨٠).
- جماعة النهضة القومية (القاهرة ١٩٨٥).
- السياسة الأمريكية والعرب، بيروت ١٩٨٢ (تأليف مشترك) .
- هنرى كورييل والحركة الشيوعية المصرية (القاهرة ١٩٨٨).
- جامعة القاهرة، ماضيها وحاضرها (القاهرة ١٩٨٩).
- كبار الملاك والفلاحين فى مصر ١٨٣٧ – ١٩٥٢ (تأليف مشترك) تحت الطبع.

*** تحرير وإشراف (كتب باللغة العربية)**

- مصر للمصريين، مائة عام على الثورة العرابية، القاهرة ١٩٨١.
- مصر وعام البحر المتوسط، القاهرة ١٩٨٦.
- العرب فى أفريقيا، الجذور التاريخية والواقع المعاصر، القاهرة ١٩٨٩.
- أربعون عامًا على ثورة يوليو، دراسة تاريخية، القاهرة ١٩٩٢.
- ندوة التاريخ الاقتصادى فى العصر العثمانى، عدد خاص من مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، القاهرة ١٩٩٣.
- العلاقات المصرية – البريطانية ١٩٥١ – ١٩٥٤، القاهرة ١٩٩٥.
- الأحزاب المصرية ١٩٢٢ – ١٩٥٣، القاهرة ١٩٩٥.
- حرب السويس بعد أربعين عامًا، القاهرة ١٩٩٧.
- إصـــلاح أم تحديث، مصر فى عصر محمد على، القاهرة ١٩٩٩.

*** ترجمة كتب من الإنجليزية :**

- م. هاتشيا، يوميات هيروشيما، القاهرة ١٩٧٧.
- مورس دوب، دراسات فى تطور الرأسمالية، القاهرة ١٩٧٨.
- الكسندرشولش، مصر للمصريين، القاهرة ١٩٨٣.
- شارل عيساوى، الهلال الخصيب، تاريخ اقتصادى وثائقى، بيروت ١٩٨٩.
- بيترجران، الجذور الإسلامية للرأسمالية، القاهرة ١٩٩٢ (مراجعة وإشراف) .
- نيللى حنا، تجارة القاهرة فى العصر العثمانى، سيرة أبو طاقية،

شاهبندر التجار، القاهرة ١٩٩٧.

- بيترجران، ما بعد المركزية الأوروبية، دراسة فى تاريخ العالم، القاهرة ١٩٩٨ (مراجعة وإشراف) .

*** الدراسات والبحوث:**

- نشر ٢١ بحثاً باللغة العربية بالمجلات والدوريات العلمية بمصر ودمشق وبيروت (فيما بين ١٩٧٧ – ١٩٩٨).

*** المؤلفات بالإنجليزية :**

- كتاب صدر فى طوكيو عام ١٩٩٠ بعنوان
The Japanese and Egyptian Enlightenment.

خمسة عشر بحثًا نشرت بالدوريات باليابان وألمانيا ومصر وبريطانيا وفرنسا (فيما بين (١٩٧٣ – ١٩٩٨).

*** الإسهام فى التخصص :**

- صاحب مدرسة فى التاريخ الاجتماعى، تولى من خلالها تكوين جيل من الباحثين فى تاريخ مصر الاجتماعى فى مصر أعدوا أطروحاتهم تحت إشرافه، كذلك أسهم فى تكوين بعض الباحثين فى هذا المجال فى اليابان وألمانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية.

للنشر فى السلسلة :

* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوباً على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء. ويفضل أن ترفق معه أسطوانة (C.D) أو ديسك مسجلاً عليه العمل إن أمكن.
* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة .
* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبع الكتاب أم لم يطبع .

صدر مؤخراً فى سلسلة
الإصدارات الخاصة

62- بعض ما يمكن قوله.. أوراق ليست شخصية ..... محمود الوردانى

63- شخصيات وتجارب فى المسرح العربى..... رجاء النقاش

64- الحركة العمالية فى مصر ..... د. رؤوف عباس

65- مواقيت التعرى..... هدرا جرجس

66- سمير عبد الباقى.. طفل السبعين فى عيون الآخرين.....
مجموعة من الكتاب والباحثين

67- مدخل فى الموسيقى..... محمد قابيل

68- ثومة حكاية فيلم لم يكتمل ..... الأمير أباظة

69- بوابة جبر الخاطر ..... محمد مستجاب

70- الفن وأحواله ..... أحمد فؤاد سليم

71- الصعيدى والصعيديات..... عدلى رزق الله

72- الزحام ..... يوسف الشارونى

73- قصة السد العالى..... طاهر أبو فاشا

74- المسرح الإقليمى.. مسرح المستقبل ..... عبد الغنى داود